فلسفة

فريدريك نيتشه

ديفيد شتراوس

المُعترف والكاتب

ترجمة وتقديم

قحطان جاسم

Translated by

Kahttan Jasim

ديفيد شتراوس
المُعترف والكاتب

فردريك نيتشه

ترجمة: قحطان جاسم

تُرجم الكتاب عن الإنكليزية وعنوانه:

David Straus, The Confessor and the Writer

ضمن كتاب واحد هو:

Nietzsche Friedrich, Meditations Untimely, Hollingdale J. R . trans, Breazeale Daniel. ed. (Cambridge: Press University Cambridge,1997).

وصدر الكتاب بالألمانية تحت عنوان:

Unzeitgemässe Betrachtungen

Translated by Kahttan Jasim

الطبعة الأولى: يونيو ـ حزيران، 2021 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain2020
All Rights Reserved /جميع حقوق الطبع محفوظة (C)
حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

لبنان ـ بيروت/ الحمرا
تلفون: 345683 1 961+/541980 1 961+

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647811005860+/9647714440520+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 02 - 1

فردیریک نیتشه

دیفید شتراوس

المُعترف والكاتب

ترجمة

قحطانِ جاسم

www.daralrafidain.com

عن هذا الكتاب

كتاب «ديفيد شتراوس ـ المعترف والكاتب» هو أحد النصوص الأربعة التي صدرت للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه بين الأعوام (1873 ـ 1876). وكان نيتشه قد خطط في الأصل، كما ورد في أوراقه، لإصدار ثلاثة عشر نصًّا تتناول موضوعات مختلفة، إلا أنه لم يتمكن من إنجاز سوى أربعة منها.[1]

وكما تناولت النصوص الأخرى شخصياتٍ كالفيلسوف شوبنهاور ومؤلف الموسيقى الأوبرالية فاغنر، فإن نيتشه تناول في هذا الكتاب آراء وتصورات ديفيد شتراوس (1808 ـ 1874).

بدأ نيتشه العمل على هذا الكتاب في عام 1873، وقد وجه نقدًا صارمًا ولاذعًا لأفكار وتصورات ديفيد شتراوس المسيحية، الذي صعد نجمه في

---

(1) صدر كتاب ديفيد شتراوس: المُعترف والكاتب، مع النصوص الثلاثة الأخرى لنيتشه مترجماً إلى الإنكليزية وبتواريخ وعناوين مختلفة كما يلي:

Anthony M. Ludovici, tr: Friedrich Nietzsche, Thoughts out of Season. Edinburgh: Edinburgh Press,1909, Richard T. , tr.: Friedrich Nietzsche, Unfashionable Observations, Standford, 1995.

Hollingdale J. R . trans, Breazeale Daniel. ed Nietzsche Friedrich, Meditations Untimely, Cambridge: Press University Cambridge,1997.

وقد اعتمدت بشكل رئيسي ترجمة Hollingdale J. R إضافة إلى الترجمتين أعلاه للمقارنة. كما أُرفقت هوامش الترجمة الإنكليزية في هذه الترجمة العربية.

تلك الفترة، وخاصة بين الهيغليين اليساريين، باعتباره مفكرًا لاهوتيًّا يطرح أفكارًا إصلاحية للدين المسيحي، على الرغم من رفضهم لاستنتاجاته، وخاصة في كتابه «حياة المسيح». علمًا أن شتراوس كان متأثرًا بأفكار هيغل واللاهوتي شلايرماخر الذي تتلمذ على يديه.

من الكتب التي صدرت لشترواس في ذلك الوقت:

Das Leben Jesus (حياة المسيح) و *Christliche Glaubenslehre* (العقيدة المسيحية)، إضافة إلى كتاب المسيح التاريخي.

وقد تركز نقد نيتشه لأفكار شتراوس اللاهوتية وعقائده الدينية التبشيرية الجديدة على نقد الثقافة الألمانية وتاريخها والمؤسسات التعليمية عمومًا، إلى جانب التزمت الفكري الذي كان يسم تصورات شتراوس الإيمانية.

وما يميز هذا الكتاب هو سلاسة لغته وعمقها وتضمنها العديد من الأفكار، وخاصة الكيفية التي يُنظَر بها إلى التاريخ وقضية الإصلاح الديني. ثم إنه يعلم أن قاعدة النقد الفكري تقوم على التفكيك والتحليل وتقديم الحجج التي تتعلق بالنص وليس بشخص مؤلفها، كما كتب نيتشه في رسالة يوضح فيها أهدافه في النقد الصارم الذي وجهه على سبيل المثال إلى ديفيد شتراوس وريتشارد فاغنر فيما بعد.

آمل أن تساهم هذه الترجمة، وهي أول ترجمة إلى العربية حسب علمي، في إضافة فكرية جديدة إلى الثقافة العربية، تعرفنا بوجه آخر من تصورات فردريك نيتشه ومنهجه الفكري.

المترجم

قحطان جاسم

5.10.2020

(1)

يبدو أن الرأي العام في ألمانيا يكاد يمنع النقاش حول النتائج الشريرة والمحفوفة بالمخاطر للحرب، وخاصة تلك التي انتهت بانتصار: هناك إذن استعدادٌ أكبرُ للإصغاء إلى هؤلاء الكتاب الذين لا يعرفون سلطة أثقل من هذا الرأي العام، والذين يتنافسون لهذا بعضهم مع البعض الآخر في الإشادة بالحرب، وفي البحث عن التأثير القوي الذي تمارسه في الأخلاق والثقافة والفن. على الرغم من ذلك، يجب القول إن النصر الكبير يشكل خطراً كبيراً.

تجد الطبيعة البشرية صعوبة أكبر في تحمل النصر بدلاً من الهزيمة. يبدو في الواقع أن تحقيق النصر أسهل من تحمله بطريقة لا تتحول في الواقع إلى هزيمة، ومع ذلك، من بين كل العواقب الشريرة التي أعقبَتِ الحربَ الأخيرة مع فرنسا، ربما يكون الأسوأ هو خطأ واسع النطاق، بل عالمي: الخطأ الذي يرتكبه الرأي العام وجميع الذين يعبرون عن آرائهم علنًا، أن الثقافة الألمانية كانت أيضاً المنتصر في هذا الكفاح، وبالتالي يجب أن تكون الآن مملوءة بالأكاليل المناسبة لهذا الإنجاز الاستثنائي. هذا الوهم مدمر بدرجة عالية: ليس لأنه من الوهم ـ إذ توجد أخطاء مفيدة ومثمرة للغاية ـ ولكن لأنه قادر على تحويل انتصارنا إلى هزيمة: *إلى هزيمة، إن لم يكن إبادة، الروح الألمانية لصالح (الرايخ الألماني).*

حتى لو افترضنا أن حربًا من هذا النوع كانت في الواقع حربًا بين ثقافتين، فإن قيمة المنتصر ستبقى قيمة نسبية للغاية وبالتأكيد لا يمكن أن تبرر جوقات الانتصار أو أعمال التمجيد الذاتي. يجب على المرء أن يعرف ما هي القيمة التي استحقتها الثقافة المهزومة: ربما كان الأمر يستحق القليل، في هذه الحالة، لن يشكل انتصار الثقافة المنتصرة، حتى لو حضرها النجاح الأكثر روعة.في السلاح، دعوة إلى الانتصارات المنتشية. من ناحية أخرى، لا يمكن في الحالة الراهنة أن يكون هناك أي نصر لانتصار الثقافة الألمانية، لسبب بسيط هو أن الثقافة الفرنسية ما تزال موجودة، ونحن نعتمد عليها حتى الآن. لم تلعب ثقافتنا أي دور حتى في نجاحنا في السلاح. الانضباط الصارم، والشجاعة الطبيعية والتحمل، والقيادة المتفوقة والوَحدة والطاعة بين الصفوف ـ باختصار، فإن العناصر التي لا علاقة لها بالثقافة، حققت لنا الانتصار على المعارضين الذين كانوا يفتقرون إلى أهم هذه العناصر: والعجب هو أن ذلك الذي يطلق على نفسه حاليًا «الثقافة» في ألمانيا أثبت أنه عائق صغير جدّاً أمام المطالب العسكرية التي كان لا بد من الوفاء بها لتحقيق نجاح كبير، ربما كان ذلك فحسب، لأن ذلك الذي يطلق على نفسه ثقافة توقع منفعة أكبر في إخضاع نفسه هذه المرة. لكن إذا سُمح لها الآن أن تنمو وتترفه، إذا دُلِّلَت بالوهم المغري الذي ينتمي النصر إليه، فسيكون لديها، كما قلت، القوة على إخماد الروح الألمانية ـ ومن يدري إن كان الجسد الألماني الباقي سيكون ذا فائدة مهما كانت!

إذا كان من الممكن أخذ هذه الشجاعة الهادئة والمثابرة التي أظهرها الألمان ضد الاندفاع العاطفي والمغشوش للفرنسيين وتحويله ضد العدو في الداخل، ضد هذا الغموض الشديد وفي أي حال من الأحوال «الثقافة»

الغريبة التي يُساء فهمها بشكل خطير في هذه الأيام لتشكل ثقافة، فلن يضيع كامل الأمل في خلق ثقافة ألمانية حقيقية، نقيض هذه «الثقافة»، لأن الألمان لم يفتقدوا أبداً قادة وجنرالات يتسمون بالوضوح والشجاعة ـ على الرغم من أن هؤلاء كانوا يفتقرون مرارًا إلى ألمان. ولكن ما إذا كان من الممكن في الواقع إعادة توجيه الشجاعة الألمانية بهذه الطريقة، يبدو لي أكثر فأكثر شكّاً، وبعد الحرب الأخيرة أصبح الأمر غير محتمل يومياً، لأنني أرى كيف أن الجميع مقتنعون بأن الكفاح والشجاعة عادا غير مطلوبين، ولكن على العكس من ذلك، يُنَظَّم معظم الأشياء بأفضل طريقة ممكنة، وأن كل ما يلزم القيام به، على أي حال، قد تم منذ وقت طويل ـ باختصار، أن أرقى بذور الثقافة قد زرعت في كل مكان وهي تنفلق في بعض الأماكن في الأوراق وحتى في أزهار مترفة. لا يسود في هذا المجال رضاً عن النفس صرفٌ، بل فرح وبهجة. أشعر بهذا الفرح والبهجة في الثقة بالنفس التي لا تضاهَى لصحافيينا الألمان وصانعي الروايات والتراجيديات والأغاني والقصص: لأن هذه الأنواع تنتمي بجلاء إلى جماعة واحدة يبدو أنها اشتركت في مؤامرة لتولي مسؤولية وقت فراغ وساعات الإنسان الحديث التأملية ـ وهذا يعني «لحظاته الثقافية» ـ وبتلك أذهله بالورقة المطبوعة. منذ الحرب، كل ما هو موجود سعادةٌ وكرامة ووعي ذاتي في هذه الجماعة: بعد مثل هذه «النجاحات للثقافة الألمانية»، لا تشعر أنها معززة ومقبولة فحسب، ولكنها مقدسة تقريبًا، وبالتالي تتحدث بشكل أكثر جدية ويسعدها أن تخاطب الشعب الألماني، وتنشر طبعات كاملة بطريقة الكلاسيكيات، وتذهب إلى حد توظيف تلك المجلات الدولية التي تقف في خدمتها لإعلان أفراد معينين من وسطها بوصفهم كتاباً كلاسيكيين وكتاباً نموذجيين.

ربما يتوقع المرء أن الأشخاص الأكثر فكراً وتعلماً بين الألمان المثقفين قد أدركوا الأخطار الكامنة في مثل هذا *الاستخدام السيئ للنجاح*، أو على الأقل شعروا بأن هذا المشهد مؤلم: إذ ماذا يمكن أن يكون أكثر إيلاماً من رؤية رجل مشوه يجمّل نفسه أمام المرآة وكأنه ديك صغير ويتبادل نظرات الإعجاب مع صورته؟ لكن الطبقات المتعلمة سعيدة لتسمح بحدوث ما يحدث، ولديها على أيّ حال ما يكفي للقيام به للحفاظ على أنفسها دون عبء إضافي يتمثل في رعاية رفاهية الروح الألمانية. علاوة على ذلك، فإن أعضاءها مقتنعون بدرجة عالية بأن ثقافتهم هي الثمرة الأنضج والأطيب في العصر، وفي الواقع في كل العصور، ولا يمكنهم فهم لماذا يجب على أي شخص أن يحتاج إلى الاعتناء برفاهية الثقافة الألمانية بشكل عام، ما دام أنهم أنفسهم وأعداد لا حصر لها مثلهم قد ذهبت إلى أبعد بكثير من هذه الاعتبارات. ومع ذلك، لا يمكن للمراقب الأكثر حذراً، خاصة إذا كان أجنبياً، أن يلاحظ أن ما يطلق عليه الباحث الألماني الآن ثقافته وتلك الثقافة المبتهجة للكلاسيكيين الألمان تختلف عن بعضها البعض في مدى معارفها فقط: وحيثما لا يكون السؤال متعلقاً بالمعرفة والمعلومات، ولكن بالفن والقدرة، وحيثما، يمكن القول، إن الحياة شاهد على الثقافة ـ فهناك الآن ثقافة ألمانية *واحدة* فقط: وهل من المفترض أن تكون قد انتصرت على فرنسا؟

يبدو مثل هذا التأكيد غير مفهوم تماماً: فقد رأى جميع القضاة المحايدون، وفي النهاية الفرنسيون أنفسهم، ميزة ألمانيا الحاسمة المطروحة في المعرفة الأشمل التي يمتلكها ضباطها، وفي التدريب المتفوق لقواتها، وفي علمها الأكبر لقيادتها للحرب. بأيّ معنًى، إذن،

يمكن القول أن الثقافة الألمانية قد انتصرت، لو فكر المرء بأن يستنبط منها سعة الاطلاع الألمانية؟ لا، بأي حال من الأحوال: لأن الصفات الأخلاقية للانضباط الأكثر صرامة والطاعة الأكثر استعداداً لا علاقة لها بالثقافة ـ على الرغم من أنها ميّزت الجندي المقدوني من اليوناني، على سبيل المثال، فإن الأخيرين كانوا أكثر ثقافة بشكل لا يضاهى. يمكن أن يكون ذلك فحسب نتيجة للارتباك لو تحدث المرء عن انتصار الثقافة الألمانية، وهو ارتباك ناشئ عن حقيقة أنه عاد لا يكون هناك في ألمانيا أيّ تصوّر واضح لماهية الثقافة.

.الثقافة، قبل كل شيء، هي وحدة الأسلوب الفني لجميع أشكال التعبير عن حياة الشعوب. الكثير من المعرفة والتعلم ليسا وسائل أساسية للثقافة ولا علامة عليها، وإذا لزم الأمر يمكن أن تتماشى بشكل جيد مع نقيض الثقافة، الهمجية، التي تفتقر إلى الأسلوب أو الخليط المشوش لجميع الأنماط.

في مثل هذا الخليط المشوش من الأساليب يسكن الألماني في عصرنا هذا، ويتساءل المرء بجدية كيف يمكن أن يفشل، مع سَعَة اطّلاعه، في ملاحظته، بل، وعلى العكس من ذلك، يفرح من القلب للثقافة التي يمتلكها في الوقت الحاضر. إذ ينبغي إعلامه عن كل شيء: كل نظرة يلقيها على ملابسه، غرفته، كل خطوة يمشيها في شوارع مدينته، كل زيارة يقوم بها إلى متجر الأزياء، وعليه أن يكون في حياته الاجتماعية على دراية بأصل آدابه وسلوكه، في عالم مؤسساتنا الفنية، حفلاتنا، مسارحنا، متاحفنا، يجب عليه أن يلاحظ التجاور المتنافر والاضطراب بين الأنماط المختلفة. يحشد الألماني حوله الأشكال والألوان ونتاجات

وفضول كل عصر ومناخ، وينتج أرض معارض غير متناغمة يتعين على زملائه المتعلمين بعد ذلك مراقبتها وتصنيفها على أنها «حديثة على هذا النحو»، بينما يظل هو جالساً بهدوء وسط الاضطراب. ولكن مع هذا النوع من «الثقافة»، التي هي في الواقع مجرد افتقار لا مبال إلى كل إحساس بالثقافة، لا يمكن للمرء أن يتغلب على الأعداء، على الأقل أولئك الذين يمتلكون في الواقع، كالفرنسيين، ثقافةً حقيقية ومثمرة، بغض النظر عمّا تكون قيمتها، والتي قمنا بنسخ كل شيء منها حتى الآن، على الرغم من أن ذلك عادةً ما يكون بقليل من المهارة.

إذا توقفنا حقيقة عن استنساخها، فلن ننتصر بذلك عليها، بل نكون فحسب قد حررنا أنفسنا منها: إذا فرضنا على الفرنسيين فحسب ثقافة ألمانية أصيلة يمكن أن يكون هناك أي سؤال حول انتصار الثقافة الألمانية. في غضون ذلك، ينبغي أن لا ننسى أننا ما زلنا نعتمد على باريس في جميع قضايا الشكل، تماماً كما من قبل، وعلينا أن نواصل الاعتماد على الغير، لأنه حتى الآن لم تكن هناك ثقافة ألمانية أصيلة.

يجب علينا جميعاً أن نكون واعين بهذا من خلال معرفتنا الخاصة: بالإضافة إلى ذلك، فإن أحد القلائل الذين لديهم الحق في التحدث إلى الألمان عنه في نبرة عتاب قد كشف عنه علناً. قال غوته ذات مرة لإيكرمان: «نحن ألمان الأمس، صحيح أننا ثقفنا أنفسنا بشكل سليم لمدة قرن، لكن قد يتعين أن تمر قرون عديدة قبل أن تخترق روح كافية وثقافة عالية أبناء وطننا ويصبح دارجاً لها أن يكون ممكناً القول عنهم: *لقد مضى وقت طويل منذ أن كانوا برابرة*».[1]

---

(1) غوته إلى إيكرمان في 3 آيار 1827.

(2)

أما إذا كانتْ حياتُنا العامة والخاصة لا تحمل بجلاء طابع ثقافة منتجة وآمنة من الناحية الأسلوبية، إذا كان فنّانونا العظماء قد اعترفوا، إضافة على ذلك، وما زالوا يعترفون بهذه الحقيقة الفظيعة والمذلة للغاية، بالنسبة إلى شعب موهوب، فكيف يكون ممكناً أن يستمر أكبر قدرٍ من الرضا عن النفس في التحكم بالألمان المتعلمين: رضًا عن النفس أظهر منذ الحرب الأخيرة استعداداً للانفجار في صيحات الابتهاج والانتصار؟ على أية حال، هناك اعتقادٌ راسخ بأننا نمتلك ثقافة حقيقية: ويبدو هذا التباين الهائل بين هذا الاعتقاد بالرضا، والجذِل حقاً، والعيب الثقافي المفضوح واضحاً لقلة منتخبة فقط. أما بالنسبة إلى أولئك الذين تزامنت وجهات نظرهم مع الرأي العام فقد غطوا أعينهم وعلقوا إصغاءهم ـ ينبغي أن لا يُقَرّ بوجود التباين. كيف يكون هذا ممكناً؟ ما القوة القادرة على أن تملي مثل هذه الـ«يجب أن لا»؟ ما أنواع البشر التي يجب أن تتحكم بألمانيا بحيث يمكن حظر مثل هذه المشاعر القوية والبسيطة وإعاقة التعبير عنها؟ سأسمي هذه القوة، هذا النوع من البشر، باسمها ـ إنه المتزمت الثقافي.[1]

كلمة «philistine»، كما هو معروف جيداً، تخصِ القاموس الطلابي،

---

(1) ترجمة لـ«cultural philistine»، هو الشخص المتزمت الذي لا يحب الفنون الرفيعة كالموسيقى والفنون والجمال. وهو راضٍ بحاله، محافظ على القديم.

وتشير بمعناها الشعبي الواسع إلى نقيض ابن الفكر، والفنان، ورجل الثقافة الحقيقية. ومع ذلك، فقد أصبح المتزمت الثقافي، الذي ندرسه ونستمع إلى اعترافاته عندما يصنعها، واجباً غير مقبول يميز نفسه من الفكرة العامة لأنواع «المتزمت» من خلال الخرافة: فهو يتخيل نفسه أنه هو نفسه ابن المفكرين وإنسان الثقافة: الاعتقاد المبهم الذي يكشف عن أنه لا يعرف حتى ما هو المتزمت، والمناقض للمتزمت: لذلك لن نفاجأ أنه ينكر عادةً أنه متزمت بجدية. يشعر، مع هذا الافتقار إلى المعرفة الذاتية، أنه مقتنع بحزم أن «ثقافته» هي التعبير الكامل عن الثقافة الألمانية الحقيقية، ولمّا كان يكتشف في كل مكان أناساً مثقفين من طرازه، ويجد جميع المؤسسات العامة والمدارس والهيئات الفنية والثقافية منظمة وفقاً لنوعية ثقافته وفي خدمة متطلباته، فإنه يحمل معه في كل مكان الإحساس المنتصر بكونه ممثلاً مؤهلاً للثقافة الألمانية المعاصرة ويؤطر مطالبه ورواياته طبقاً لذلك. ومع ذلك، إذا كان يجب على الثقافة الحقيقية أن تفترض مسبقاً في كل الأحوال وَحْدة الأسلوب، وحتى الثقافة المتدنية والمنحلة لا يمكن التفكير في أنها تفشل في إظهار وَحدة أسلوبية تُوَاءم ضمنها الظواهر المتشعبة التي تميزها، هذا التشوش الذي يتحكم بعقل المتزمت الثقافي المخدوع قد ينشأ في حقيقة أنه يكتشف بصورة جيدة في كل مكان نسخاً متطابقة لنفسه، ويستنتج من هذه الهُوية لجميع الناس «المثقفين» وجودَ وَحْدة في الأسلوب، وبالتالي وجود الثقافة الألمانية. لا يدرك من حوله سوى احتياجات متطابقة مع وِجِهات نظره. أينما ذهب، احتضنته في الحال رابطة من الاتفاقيات الضمنية فيما يتعلق بالعديد من الأشياء، لا سِيما في عالم الدين والفن: هذا التجانس المثير للإعجاب،

هذا الكل معاً[1] الذي لا يقوده أحد، ولكن الذي يكون مستعداً للانطلاق دائماً، ويغريه للاعتقاد بأن الثقافة هنا مهيمنة. لكن التزمت المنهجي والقمعي لا يشكل ثقافة، وحتى ثقافة أقل شأناً، لمجرد أنه يمتلك نظاماً:[2] يجب أن يكون دائماً نقيض الثقافة، أعني الهمجية القائمة بشكل دائم. لأن هذا التجانس اللافت للنظر لدى الناس المثقفة في ألمانيا اليوم هو تجانس فقط خلال الإقصاء الواعي أو اللا واعي ونفي كل شكل من أشكال الإنتاج الفني والدعوة إلى أسلوب حقيقي. لا بد أن تأطيراً حزيناً قد حصل في عقل المتزمت الثقافي. فهو يَعُدّ ثقافةً تلك التي تنكر الثقافة تماماً، ولمّا كان معتاداً على المضيّ بانسجام قدماً، فإنه ينال مجموعةً متماسكة من مثل هذه التعارضات، نظاماً غير ثقافي قد يمنحه المرء «وحدة أسلوب» معينة، إذا كان من المنطقي التحدث عن الهمجية بأسلوب. إذا سُمح له الاختيار بين فعل مقبول أسلوبياً وواحد من النوع المعاكس، فإنه يختار هذا الأخير دائماً، ولأنه دائماً ما يفعل ذلك، تحمل جميع أفعاله الطابَع السلبي. هذا الطابع السلبي على وجه التحديد الذي يمكّنه من تعرّف طبيعة «الثقافة الألمانية» التي حصل على براءة اختراعها: فكل ما لا يتوافق معها يحكم عليه بالعدوانية والإساءة إليه. في هذه الحالة، لا يقوم المتزمت الثقافي بأكثر من الدفاع عن نفسه: فهو ينكر الأسرار، ويوقف إصغاءه، ويحوّل بصره، إنه كائن سلبي حتى في كراهيته وعدوانيته. ومع ذلك، الشخص الذي يكرهه أكثر من بين الجميع هو الذي يعامله كمتزمت ويخبره بما هو عليه: عائق للقوي والمبدع، متاهة لكل من يشك ويضل، مستنقع لأقدام

---

(1) ترجمة للأصل Tuitti unisono.

(2) نظام أو بُنية.

المتعب، قيد لكل الذين سيسعون إلى تحقيق أهداف سامية، ضباب سام لكل البراعم الجديدة، صحراء قاحلة للروح الألمانية التي تسعى وتظمأ إلى حياة جديدة. لأنها تسعى إلى هذه الروح الألمانية! وأنت تكرهها لأنها تسعى وترفض تصديقك عندما تقول إنك قد وجدت بالفعل ما تبحث عنه. كيف يكون ممكناً أن نوعاً مثل هذا المتزمت الثقافي أمكن أن يظهر إلى حيز الوجود، وبمجرد وجوده استطاع أن يكسب سلطةَ المحَكَّم الأعلى لكل قضايا الثقافة الألمانية. كيف يكون هذا ممكناً بعد أن أُرشفت[1] هناك، مرت علينا سلسلة كاملة من الشخصيات البطلة العظيمة التي خانت كل حركتها، كل ميزتها وصوتها المتسائل وعينها الملتهبة، عدا أمر واحد: *أنهم كانوا باحثين*، وأن ما كانوا يبحثون عنه بمثل هذه المثابرة هو بالتحديد ما تخيله المتزمت الثقافي، الذي كان يمتلكه فعلاً: ثقافة ألمانية أصيلة حقيقية. أيبدو أن هناك أساساً ليسألوا، بنقاء خالص وأصيل تماماً، عن مثل هذه القداسة البكر، أن الروح الألمانية قد تقيم بيتها على هذا الأساس وليس على غيره؟ متسائلين على هذا النحو، شقّوا طريقهم في البرية والأشواك في العصور البائسة والهزيلة، وكباحثين فقد غابوا عن أنظارنا: حتى يتمكن أحدٌ منهم، متحدثاً إلى الجميع، من أن يقول في شيخوخته: «لقد كدحت لمدة نصف قرن ولم أسمح لنفسي بأي استراحة، لكنني جاهدتُ باستمرار وسعيت وعملت بشكل جيد وبأقصى ما أستطيع».[2]

لكن ما هي وِجهة نظر ثقافتنا المتزمتة تُجاه هؤلاء الباحثين؟ إنها تعتبرهم مكتشفين، وليسوا باحثين، ويبدو أنها تنسى أنهم كانوا كباحثين يحترمون

---

(1) يمكن أن تترجم «خُزِنت هناك» أو «وضعت في ملف هناك».

(2) غوته إلى إيكرمان، 14 آذار 1830.

أنفسهم. «لدينا ثقافتنا، أليس كذلك؟»، هم يقولون، «لدينا كلاسيكياتنا، أليس كذلك؟ لم توضع الأسس فحسب، بل المبنى ذاته بالفعل عليها ـ نحن أنفسنا هذا المبنى». ويرفع المتزمت يده إلى جبهته.

وبالتالي، لإساءة تقدير كلاسيكياتنا، مع ذلك، وفي التفكير بتكريمهم ومن ثَم لعنهم، فمن الضروري عدم معرفتهم: وهذه هي الحقيقة العامة. وإلا فمن المعروف أن هناك طريقةً واحدة فقط لتكريمهم، وهي مواصلة البحث في أرواحهم وفي شجاعتهم، وأن لا يصبحوا ضجرين من القيام بذلك. من ناحية أخرى، أن تلصق بهم الكلمة المشبوهة «كلاسيك» ومن وقت إلى آخر أن يربي نفسه بكتبهم، يعني أن يُخضع نفسه لتلك الأحاسيس الضعيفة والأنانية التي وعدت بها صالاتُ حفلاتنا الموسيقية ومسارحنا لأيّ شخص يمكنه الدفع لها. نفس الأمر ينطبق على تشييد تماثيلهم وتسمية المهرجانات والمجتمعات باسمهم ـ كل هذه الأشياء هي مجرد مدفوعات نقدية يسوي عن طريقها المتزمت الثقافي حساباتٍ معهم، حيث لا يُضطر إلى متابعتهم والاستمرار بالبحث. لأن «كلّ بحث غاية» هو شعار المتزمتين.

كان هناك زمن عندما كان هذا الشعار عقلانيّاً إلى حد ما: الزمن الذي كان فيه، خلال العقد الأول من القرن الحالي، البحث المرتبك للغاية، والتجريب، والتهديم، والوعد، والظن، والأمل ـ كان متواصلاً في ألمانيا بحيث إن الطبقة الوسطى الروحية كانت محقة في الخوف على سلامتها. في ذلك الوقت كان من الصائب أن ترفض بهزةِ أكتافٍ مشروبَ الفلسفات الرائعة ومحورة اللغة والمدونات التاريخية المنحازة، كرنفال جميع الآلهة والأساطير التي مزجها الرومانسيون معاً، ولرفض الصرعات والحماقات

الشعرية الحالية أيضاً التي تسبح في الخيال في حالةٍ من التسمم ـ هذا صحيح، إذ ليس لدى المتزمت الحق حتى للإغواء. مع ذلك، فقد انتهز الفرصة التي أتيحت له على هذا النحو، مع البراعة العائدة إلى الطبائع المتدنية، لإلقاء الشكوك حول السعي على هذا النحو، ولتعزيز وعيٍ مريح من كونه موجوداً فعلاً. فُتحت عيناه على مباهج التزمت: لقد أنقذ نفسه من كل التجارِب الوحشية التي تحدث بالهروب إلى المثالية، وإلى باعث الفنان الإبداعي القَلِق الذي عارَضَ رضاً سهلاً معيّناً، واكتفاءً ذاتيّاً في حدود المرء الخاصة، هدوء المرء الخاص، حتى في ضيق أفقه الخاص. أشار أُصْبُعه الواهن، دون أي تواضع زائف، إلى الزوايا الخفية والسرية في حياته، إلى العديد من الملذات المثيرة للمشاعر والساذجة التي نشأت مثل زهور خجولة في أعمق أعماق الوجود غير المزروع كأنها كانت وحل العالم المتزمت.

كان هناك عدد من المواهب الممثلة التي صوّرت، بفرشاة ناعمة، السعادة والدفء والملل والصحة الريفية والراحة والرضا التي يمكن العثور عليها في الحضانة، ودراسة الباحث والمنزل الريفي. سعى هؤلاء الأشخاص الذين يشعرون بالرضا الذاتي عندئذ، بوجود مثل هذه الكتب المصوِّرة للواقع بين أيديهم، إلى التصالح مرةً واحدة، وإلى الأبد، مع الكلاسيكيات التي وجودها غير مزعج جدّاً، ومع الحاجة إلى مزيد من البحث الذي انطلق منهم، ابتكروا مفهوم العمل الإبيغوني[1] بهدف الحصول على سلام وهدوء، وذلك لمقابلة كل ابتكار غير مريح بحكم إدانة بـ«عمل إبيغوني». إنهم نفسُ الأشخاصِ ذوي الرضا الذاتي الذين

(1) Epigoni، بمعنى التابع أو المريد. وتأتي أيضاً بمعنى «مقلد أدنى».

تولوا مسؤولية التاريخ، بنفس الغاية في ضوء ضمان سلامتهم، وسعوا إلى تحويل كل العلوم التي يمكن توقعها لتربك قناعتهم في انضباط تاريخي، لا سِيما في حالة الفلسفة وعلم اللغة الكلاسيكية. لقد أنقذوا أنفسهم من الحماسة خلال الوعي التاريخي ـ فمن المفترض أن التاريخ عاد لا يَلِد الحماسة، على الرغم من أن غوته ربما يعتقد أنه فعل ذلك: التخدير هو الآن هدف هؤلاء المعجبين غير الفلسفيين *المندهشين من اللا شيء*،[1] عندما يسعون إلى فهم كل شيء بصورة تاريخية. بينما يتنبأون بكراهية التعصب وعدم التسامح بكل شكل من الأشكال، فإن ما يكرهونه حقّاً كان العبقرية المهيمنة وطغيان المطالب الحقيقية للثقافة، وهذا هو سبب أنهم استخدموا جميع سلطاتهم لشل أو تخدير أو إرباك كل تلك الجهات التي قد تتوقع ظهور حركات جديدة وقوية فيها. الفلسفة التي اختفت بأدبٍ خلف زخرف تُزهرُ الاعترافَ المتزمت للمؤلف، ابتكرت بالإضافة إلى ذلك صيغة لتأليه الأمر الشائع: لقد تحدثت عن عقلانية الواقع، وعلى هذا النحو تزلفت إلى المتزمت الثقافي الذي يحب أيضاً ازدهار الزخرفة، لكن قبل كل شيء الذي يتصور نفسه بمفرده أنه حقيقي ويعامل واقعه باعتباره معيارَ العقل في العالم. لقد سمح الآن لكل شخص، بما في ذلك نفسه، أن يتأمل ويبحث ويفكر جماليّاً، وقبل كل شيء أن يؤلف الشعر والموسيقى، وأن يرسم لوحات، وحتى أن يخلق فلسفات كاملة: الشرط الوحيد هو أن كل شيء يجب أن يبقى كما كان سابقاً، وأنه ينبغي أن لا يوجد شيء، بأي حال من الأحوال، يقوّض «العقلاني» و«الحقيقي»، وهذا يعني المتزمّت. بالتأكيد، إن الأخير (المتزمت) مولَع للغاية بترك نفسه من وقت إلى آخر

---

(1) ترجمة الأصل Nil admirari.

إلى الإسراف المفرح والجريء للفن والمدونة التاريخية المشكوك فيها، ويعرف كيف يقدّر سحر مثل هذه الأشكال من الترفيه والتسلية، لكنه يعزل بصرامة «الأشياء الخطيرة في الحياة» ـ أي المهنة والأعمال التجارية والزوجة والطفل ـ عن ملذاتها: وينتمي إلى الأخير، إلى حد ما، كلّ ما له علاقة بالثقافة. لذلك، ويل للفن الذي يبدأ في أخذ نفسه على محمل الجِدّ ويطرح مطالبَ تتعلق برزقه وعمله وعاداته، وباختصار بـ«أشياء حياته الجدية» المتزمتة ـ إنه يغمض عينيه عن مثل هذا الفن كأنه من شيء فاضح، ويحذر بسحنة وصيفة مسنّة كل فضيلة عزلاء من النظر.

نظراً إلى كونه مغرماً بالنصح، فهو ممتن للفنان الذي يولي انتباهاً إليه ويسمح لنفسه بأن يكون منصوحاً، فهو جعله يفهم أنه من الآن فصاعداً لا يطلب منه روائعَ سامية، بل شيئين فقط أسهل بكثير: إما تقليد الواقع إلى حد المحاكاة في القصائد الرعوية أو هجاءاتٍ مرحة بشكل لطيف، أو نسخاً مجانية من أشهر الكلاسيكيات المألوفة والمشهورة، على الرغم من إدماج تنازلاتٍ رِعديدة لتذوق الوقت. لأنه عندما يثمن فقط محاكاة الإبيغون أو صورة تشبه أيقونة الحاضر، فهو يعرف أن الأخير سوف يمجده وينمّي رضًا عامّاً بـ«الواقع»، في حين أن السابق، بالإضافة إلى كونه غيرَ مؤذٍ تماماً، سيعزز سمعته كقاضٍ ذي ذوق كلاسيكي ـ لأنه توصل، كما ذُكر، إلى اتفاق مع الكلاسيين أنفسهم إلى الأبد. وبالنتيجة، يخترع الصيغة العامة «السلامة» لعاداته وطرق تفكيره، ما يحب وما لا يحب، ويرفض كلَّ مزعج غير مريح للسلام باعتباره مريضاً وعُصَابيّاً. على هذا النحو تحدث ديفيد شتراوس، مقتنعاً حقيقيّاً بحالة ثقافتنا ومتزمتاً نموذجيّاً، الذي تحدث على نحو مميز ذات مرة عن «عبقرية آرتور شوبنهاور، لكنه يتفلسف

بطرق عديدة بصورة معتلة وغير مجزية». إنها لَحَقيقة قاسية أن «الروح» معتادة في أغلب الأحيان أن تحلّ على «المعتل وغير المجزي»، وعلى تلك المناسبات حين يكون فيها *صادقاً* مع نفسه، والمتزمت مدركٌ أيضاً أن الفلسفات التي تنتج نوعه وتطرحها في السوق هي في كثير من النواحي بلا روح، على الرغم من أنها بالطبع معافاة ومربحة للغاية.

يتناول المتزمتون، بين آنٍ وآخر، عندما يكونون وحدهم، النبيذَ بشكل جماعي ويتذكرون، بأسلوب صريح وساذج ورائع، صنائِعَ الحرب الكبرى، في تلك المناسبات تبرز أشياءُ كثيرة إلى العلن، التي هي على خلاف ذلك مخفية بلهفة، وأحيانا يطلق أحدهم الأسرار الأساسية للإخوة برمتها. حدث شيء كهذا مؤخراً في حالة عالم جمال من أضراب مدرسة التفكير الهيجلية. كان الاستفزاز، بالتأكيد، غير معتاد بما فيه الكفاية: حلقة من المتزمتين تحتفل بذكرى شخص غير متزمت حقيقي وصادق، بالإضافة إلى واحد من الذين أُبيدوا بالمعنى الضيق للكلمة من قبل المتزمتين: ذكرى هلدرلين العظيم، وهكذا كان لعالم الجمال المشهور الحق في هذه المناسبة أن يتحدث عن الأرواح المأساوية التي تهلك أثناء الاتصال بـ«الواقع» ـ تُفهم مفردة الواقع هنا بالمعنى الذي أُشيرَ إليه مسبقاً، العقلانية المتزمتة. لكن «الواقعية» الآن شيء مختلف عمّا كانت عليه في أيام هلدرلين، ويمكن السؤال عمّا إذا كان بإمكانه العثور على طريقه في العصر الحاضر العظيم. «لا أعرف»، قال فريدريش فيشر، «إن كانت روحه اللطيفة قد تمكنت من تحمل كل القسوة التي تنطوي عليها كل حرب أو كل عفونة كنا قد رأيناها تتقدم في كل مجالات الحياة منذ الحرب. ربما كان قد

غرق في اليأس مرة أخرى. كان واحداً من النفوس المسالمة، كان فيرتر[1] اليونان، عاشقاً بلا أمل. كان حبه حياة مملوءة بالرقة والرغبة، لكن كان هناك أيضاً قوةٌ ومضمون في إرادته، وعظمة، وثراء وحياة في أسلوبه الذي يذكّرنا من حين إلى آخر باسم أسخيلوس. روحه فقط كان فيها قليلٌ جدّاً من الصلابة. كان يُعوزه سلاحُ الفكاهة، «*لم يستطع الاعتراف بأنه يمكن للمرء أن يكون متزمتاً دون أن يكون بربريّاً*». إنه هذا الاعتراف الأخير، وليس التعازي الحلوة لمتحدث بعد العشاء، الذي يُهمنا. نعم، يُقرّ المرء بأن يكون متزمتاً ـ ولكن بربرياً! ليس بأيّ ثمن. كان هلدرلين المسكين، للأسف، غيرَ قادرٍ على رسم مثل هذه الفروق الدقيقة. إذا كان المرء يفهم، بالتأكيد، من كلمة بربرية عكس الحضارة، أو حتى إن كان يساويها بأشياءَ مثل القرصنة وآكل لحوم البشر، فإن التمييز له ما يبرره، لكن ما يحاول عالم الجمال أن يقوله بوضوح هو أنه يمكن أن يكون المرء متزمتاً وبنفس الوقت رجل ثقافة ـ هذه هي النكتة التي لم يكن لدى هلدرلين المسكين روح الفكاهة كي يراها والتي دمره افتقاره إليها.

في هذه المناسبة، أنقذَ اعترافٌ ثانٍ المتكلمَ: «إنها ليست قوة الإرادة دائماً، بل *الضعف* الذي يمكننا من تجاوز هذا التوق إلى الخبرة الجميلة بعمق كبير «من قبل النفوس التراجيدية» ـ ذلك، أو شيء من هذا القبيل، كان الاعتراف المثبت باسم الحشد «نحن»، وهذا يعني «المتسامين»، «المتسامين عبر الضعف»! لنكن راضين عن هذه الاعترافات! لأننا نعرف الآن شيئين، ومن فَمِ مبادر: أولاً، أن هذه الـ«نحن» قد تحررت حقّاً من التوق إلى الجمال، وقد تجاوزته في الواقع حقيقةً. وثانياً، أُنجِزَ

(1) إشارة إلى غوته: «أحزان الشاب فيرتر».

هذا من خلال الضعف! في لحظاتِ ضعفٍ أقل انفصاماً، كان يطلق على هذا الضعف اسماً أكثر عدالة: قد كان «السلامة» المشهورة للمتزمتين الثقافيين. بعد هذه المعلومات الأخيرة، فقد يكون من المستحسن الإشارة من الآن فصاعداً إليهم، لا باعتبارهم «أصحّاء»، بل كضعفاء، أو بقوة أكبر: كضعف. لو أن هؤلاء الضعفاء فقط لا يمتلكون قوة! ماذا يمكن أن يُهمهم ما يطلق عليهم! لأنهم هم السادة، وليس سيداً حقيقيّاً من لا يستطيع أن يتحمل لقباً ساخراً. إن المرء في الواقع يكون حرّاً، شريطة أن يمتلك القوة، حتى الاستهزاء من نفسه. وبالتالي، لا يُهم ما إذا كان المرء يعرض نفسه للهجوم: لماذا لا يحمي رداءَ الانتصار الأحمر! تظهر قوة المتزمت الثقافي للعيان عندما يعترف بضعفه: وكلما اعترف مراراً، وكلما أقرّه بشكل أكثر تهكّماً، كان يخون بجلاء أحاسيسه عن أهمية الذات والتفوق بصورة أكبر. هذا هو عصر اعترافات المتزمتين الساخرين. كما قدم فردريش فيشر اعترافاً سماعياً، فقد اعترف ديفيد شتراوس بكتاب: إن الاعتراف السمعي كان ساخراً، فكذلك هو كتاب الاعترافات هذا.

(3)

يقدم ديفيد شترواس اعترافاً ذا شقين فيما يتعلق بالثقافة المتزمتة: اعترافٌ بواسطة الكلمة واعترافٌ بالفعل ـ *كلمة المعترف وصنيعة الكاتب*. عنوان كتابه *الإيمان القديم والجديد*، فيما يتعلق بمحتواه وفيما يتعلق بجَودته ككتاب وإنتاج لكاتب، هو اعترافٌ بلا انقطاع. وأن عليه أن يسمح لنفسه بالإدلاء باعتراف علني فيما يتعلق بمعتقداته على الإطلاق يشكّل بالفعل اعترافاً.[1] قد يكون لكل شخص يزيد على الأربعين الحقُّ في تجميع سيرته الذاتية، إذ حتى أكثر المتواضعين منّا قد يكون جرّب ورأى من زوايا قريبة أشياءَ ربما يجدها المفكر جديرة بالملاحظة. لكن إدلاء إفادة اعتراف عن اعتقادات المرء يجب اعتباره أكثر جرأة بشكل لا يضاهى، ما دام يفترض مسبقاً أن الكاتب يضفي قيمة، ليس فحسب على ما خَبَره أو اكتشفه أو رآه خلال حياته، بل وحتى على ما آمن به. الآن، فإن آخر شيء يرغب المفكر الحقيقي في معرفته هو أي نوع من المعتقدات تكون مقبولةً لشخصيات كشتراوس أو ماذا يعني أنهم «جُمّعوا معاً بنحو نِصْف حالمٍ» (ص. 10) بشأن الأشياء التي لا يحق إلاّ لمن يعرفها من تجربته الشخصية أن يتحدث عنها. من يمكن أن يحتاج إلى اعترافات عن

---

(1) صدر كتاب شتراوس *Der alte und neue Glaube* عام 1872. اقتباسات نيتشه هي إشارة إلى أرقام صفحات الطبعة الأصلية.

اعتقاد رَنْكه أو مومسن، مع أنهما باحثان ومؤرخان لنظام مختلف تماماً عن ديفيد شتراوس؟ بمجرد أن يسعيا إلى إثارة اهتمامنا بعقائدهم بدلاً عما في معارفهم، فإنهما سيتجاوزان حدودهما بطريقة مزعجة للغاية. لكن هذا هو ما يفعله شتراوس عندما يخبرنا عن عقائده. لا أحد يرغب في أن يعرف أيّ شيء حولها، باستثناء ربما بعض المعارضين الضيقي الأفق للعقائد الشتراوسية الذين يشعرون بأنه لا بد من أن يكمن وراءها نظامٌ من المبادئ الشيطانية الحقيقية فيريدون بلا شك أن يتفق شتراوس على تسوية عباراته المثقفة عن طريق خيانة هذه الخلفية الشيطانية. ربما استفاد هؤلاء الزملاء الأجلاف من آخر كتاب لشتراوس. ومع ذلك، فإن البقية منّا، الذين ليس لديهم أيّ سبب للشك في وجود مثل هذه الخلفية الشيطانية، لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل ـ سنكون في الواقع ممتنين لو وجدنا القليل من الشيطانية في هذه الصفحات. لأن صوت شتراوس الذي يتحدث عن إيمانه الجديد هو ليس بالتأكيد صوت روح شريرة: إنه ليس صوت روح على الإطلاق، ناهيك بأن يكون عبقرية فعلية. إنه صوت أولئك الناس الذين يقدمهم لنا شتراوس باعتبارهم «نحن» ـ إنهم، كما يقول، «باحثون وفنانون، عمالُ مكاتبَ وجنود، حِرَفيون وأصحاب أملاك، بآلافهم، وليس بأيّ حال من الأحوال الأسوأ في البلاد» ـ والذين عندما يخبروننا عن عقائدهم يُضجروننا أكثر حتى من أحلامهم. وعندما يختارون كسر صمتهم ويضجون باعترافاتهم، فيجب أن لا يسمح لحجم *نغماتهم* أن يخدعنا فيما يتعلق بفقر وفظاظة النغمة التي يغنونها. كيف يمكن لمعرفة يتشارك عديدون في الاعتقاد بها أن تجعلنا أكثر ميلاً بصورة إيجابية تُجاهها، عندما نعرف أيضاً أنه إذا غامر أي واحد من العديدين

لإخبارنا عنها، فينبغي أن لا نسمح له أن ينتهي بل نقاطعه بتثاؤب؟ إذا كان لديك مثل هذا الاعتقاد، فيجب أن نخبرك بالتزام الصمت حياله بحق الله. قد يكون ذلك في السنوات الأولى حيث بحث بعض الناس البسطاء عن مفكر في ديفيد شتراوس: أما الآن فقد اكتشفوا أنه مؤمنٌ وخاب أملهم. لو أنه بقي صامتاً[1] لكان فيلسوفاً، على الأقل بقدر ما يتعلق الأمر بهؤلاء الناس: والآن هو فيلسوف للا أحد. لكنه عاد لا يتمنى لقبَ أن يكون مفكراً. إنه يريد فقط أن يكون مؤمناً جديداً، وهو فخور بـ«إيمانه الجديد». معترفاً به كتابةً، يفكر أنه يدوّن التعليم المسيحي «للأفكار الحديثة» ويبني «طريق المستقبل العام الكوني» الواسع. في الواقع، عادَ متزمتنا لا يتردد في قول أيّ شيء، لكنه أصبح واثقاً من نفسه إلى حد السخرية. كان هناك زمن ـ زمن بعيد للغاية، يقيناً ـ عندما تُسُومِحَ مع المتزمت باعتباره شيئاً لا يقول شيئاً ولم يُقل شيءٌ عنه: وكان هناك زمن آخر عندما كان المرء يتملق غرابته، فوجده مسلّياً وتحدث عنه. حوّله هذا الاهتمام تدريجيّاً إلى مغرور وبدأ يفخر بغراباته وذهنه العبقري غير المألوف: والآن هو نفسه يتحدث، غالباً بطريقة موسيقى ريل Riehl المنزلية. «لكن ما هذا الذي أراه! أوهمٌ هو أم حقيقة؟ إلى متى وإلى أي مدًى واسعٍ يكبر كلبي؟[2] إنه يتدحرج في الوقت الحالي مثل فرس النهر على طول «الطريق السريع الكوني للمستقبل» وتغيّر نباحه وزمجرته إلى لهجاتٍ فخورة لمؤسس دين. هل تفكر، يا سيد، ربما في تأسيس دين المستقبل؟ يبدو لي أن

---

(1) «إذا بقي صامتاً هي ترجمة نيتشه من اللاتينية لـ*si tacuisses, philosophus man-sisses*.

(2) من فاوست غوته، الجزء الأول، المشهد الثالث.

الوقت لم يَحِن بعد. وحتى لا يحدث لي أن أريد تدمير أيّ كنيسة قائمة» (ص. 8) ـ لكن لِمَ لا يا سيد؟ كلّ ما يُهم هو أن المرء قادر على ذلك. عِلاوة على ذلك، ولْنَتحدث بصراحة، أنت نفسك تؤمن أنك قادر على ذلك: عليك إلقاء نظرة فحسب على الصفحة الأخيرة من كتابك. ففيه تقول إن طريقك السريع الجديد «هو الطريق السريع الوحيد الكوني إلى المستقبل»، الذي يحتاج فقط إلى الإنجاز تدريجيّاً وقبل كل شيء سفراً أكثر على طوله حتى يصبح لطيفاً ومريحاً». لذلك، لا تنكره أكثر: لقد كُشِفَ مؤسسُ الدين، وبُنِيَ الطريق الجديد والممتع والمريح إلى الجنة الشتراوسية. كل ما لم تكن راضياً به بعد، أيها الرجل المتواضع، هو العربة التي تود أن تقودنا. أنت تخبرنا بكلماتك الختامية: «إن العربة التي اضْطُر قُرّائي الكرام إلى أن يضعوا ثقتهم بي من خلالها تلبي كل المتطلبات التي لن أجازف في تأكيدها» (ص. 367): «لقد لطمنا كثيراً حولها» أها! إنك تتصيد المجاملات، أنت يا مؤسس الدين المتغنج! ومع ذلك، نفضّل أن نقول لك الحقيقة. إذا كان قارئك وَصّى نفسه بـ368 صفحة من تعاليمك الدينية بمعدل صفحة واحدة كل يوم من السنة ـ إذا تناولها، بكلمة أخرى، بأصغر جرعات ممكنة ـ نعتقد أنه سيشعر في نهاية الأمر بالاعتلال: بدافع الامتعاض من أنها فشلت في إحداث أيّ تأثير. ومع ذلك فقد شربها، قدر الإمكان، بجرعاتٍ في آنٍ واحد وفقاً لوصفة جميع الكتب في الوقت المناسب. لا يمكن أن تسبب الجرعة أي ضرر: بعيداً عن الإحساس بالامتعاض والاعتلال، سيكون الشارب في حالة مزاج سعيد وفرح، تماماً كما لو لم يحدث شيء، ولم يُدَمَّر أي دين، ولا بناء طريق سريع كوني، ولا يُقدم اعتراف ـ وهذا ما أسميه علّة! لقد نُسِيَ الطبيب والأدوية والمرض

جميعا! والضحك المبهج! التحريض المستمر على الضحك! ينبغي أن تُحسد يا سيدي العزيز، لأنك أسست أكثر الأديان قَبُولا في العالم: دين يحظى مؤسسه بالاحترام الدائم من خلال الضحك عليه.

(4)

المتزمت كمؤسس لدين المستقبل ـ الإيمان الجديد في شكله الأكثر إثارةً للإعجاب. لقد أصبح المتزمت رؤيوياً ـ تلك هي الظاهرة غير المعروفة التي تميز ألمانيا اليوم. لنحافظ، مع ذلك، في الوقت الحاضر على درجة من الحذر فيما يتعلق بهذه الحماسة الحالمة: ألم يحثنا ديفيد شتراوس بنفسه على مثل هذا الحذر، في المقطع التالي (ص. 80) الذي من المفترض أننا نعترف فيه، في المقام الأول، يقيناً، لا بشتراوس بل بمؤسس المسيحية: «نحن نعرف أنه كان هناك رؤيويون موهوبون نبلاء، فالحالم يستطيع إثارتنا وإثارة خيالنا، ويمكن أن يُحدث تأثيراً دائماً للغاية تأريخياً، لكن دعونا لا نَخْتَرْه دليلَنا للحياة. سيقودنا في ضلال إذا لم نضع نفوذه تحت سيطرة العقل». ونحن نعرف، في الواقع، حتى المزيد: كان هناك أيضاً رؤيَوِيّون حالمون لم يثيرونا ويهيجونا، ومع ذلك يعتزمون إحداث تأثير دائم للغاية تأريخياً كمرشدين للحياة وللسيطرة على المستقبل: إلى أيّ مدًى يتعين علينا أن نُخضع حماسَتهم الحالمة للسيطرة على العقل؟ يقول ليختنبرغ: «هناك حالمون متحمسون تعوزهم القدرة، وهؤلاء هم أشخاص خطرون حقّاً». في الوقت الحاضر، وبغية دعم هذه السيطرة للعقل، نودّ إجابةً صادقة على ثلاثة أسئلة. أولاً: كيف يتصور المؤمن الجديد جَنَّته؟ ثانياً: إلى أيّ مدًى تتسع الشجاعة التي منحها له الإيمان الجديد؟ وثالثاً: كيف يكتب كتبه؟ يتوجب على شترواس المعترف أن

يجيب لنا عن السؤالين الأول والثاني، أما شتراوس الكاتب فينبغي أن يجيب عن الثالث.

سيكون من الطبيعي أن تكون سماء المؤمن الجديد هي جنة على الأرض: لأن «إمكانية الحياة الفردوسية الخالدة المسيحية قد سقطت بلا رجعة»، إلى جانب تعازي المسيحية الأخرى، بالنسبة إلى الذي له «قدم واحدة» في المعكسر الشتراوسي (ص. 364). هناك بعض الأهمية في كيفية اختيار الدين لوصف جنته: وإذا كان صحيحاً أن المسيحية لا تعرف أي وظيفة سماوية أخرى غير صناعة الموسيقى والغناء، فلا يمكن التوقع من المتزمت الشتراوسي أن يطمح إليها بشكل جيد. ومع ذلك، يحتوي الكتاب الاعترافي على صفحة واحدة فردوسية، صفحة 294: أولاً، وقبل كل شيء، انشر هذه الشهادة،[1] أيها المتزمت الأكثر حظّاً! كل السماء ستقرّ بخطئها إليك. «علينا أن نعطي إيضاحاً فقط»، يقول شتراوس، «عمّا نقوم به وما قد فعلناه خلال هذه السنوات العديدة. إلى جانب مهنتنا ـ لأننا ننتمي إلى أكثر المِهَن تنوّعاً، فنحن لسنا بأيّ حالٍ من الأحوال باحثين أو فنانين فحسب، بل وأيضاً عمالَ مكتبٍ وجنوداً وتجاراً وأصحابَ أملاك، ولنقل ذلك مرة أخرى: لا يوجد عددٌ قليل منا، بل هناك عدّة آلاف وليسوا الأسوأ في أيّ بلد ـ إلى جانب مهنتنا، أقول: نحاول أن نُبقِيَ عقولنا مفتوحة قدر الإمكان لجميع المصالح العليا للبشرية. شاركنا خلال السنوات الأخيرة بأكثر الطرق حيوية في الحرب الوطنية الكبرى وبناء الدولة الألمانية، ونُشعر أنفسنا بارتياح عميق بهذا التحول، مجيدٍ بقدرٍ كان غيرَ متوقعٍ في تاريخ أمتنا المجربة بصورة كبيرة. إننا ندعم فهمنا لهذه الأشياء من خلال

(1) أو مخطوطة مصنوعة من ورق نفيس.

الدراسات التأريخية، والتي أصبحت الآن سهلة حتى لغير المتعلمين عن طريق سلسلة من الأعمال التاريخية الجذابة والمكتوبة بصورة شعبية. في الوقت نفسه، نسعى إلى توسيع معرفتنا بالطبيعة التي لا يوجد فيها أيضاً نقصٌ في المساعدات المتاحة للفهم المشترك. وأخيراً، نجد في كتابات شعرائنا العظماء، في إنجازات أعمال مؤلفينا الكبار، حافزاً للروح والقلب، للخيال وروح الفكاهة، لا يترك أيّ شيء يمكن تمنيه. وهكذا نعيش ونمضي في طريقنا فرحين».

هذا هو إنساننا، يصرخ المتزمت الذي يقرأ هذا: إذ هذه هي الطريقة التي نعيش، وكيف نعيش كل يوم![1] ويا لها من صيغة جميلة يملكها لوصف الأشياء! عندما يشير، على سبيل المثال، إلى الدراسات التاريخية التي ندعم بوسائلها فهم وضعنا السياسي، فما الذي يمكن أن يشير إليه سوى قراءة الصحف، وعندما يتحدث عن مشاركتنا الحيوية في بناء الدولة الألمانية، ما الذي يمكن أن يعنيه سوى زياراتنا اليومية إلى الحانة؟ أليس نزهة في حديقة حيوان ما كان يعنيه بـ«المساعدات المتاحة للفهم المشترك العام» الذي من خلاله نوسع معارفنا بالطبيعة؟ وأخيراً، فإن المسارح والحفلات الموسيقية التي نأخذ منها إلى البيت «حافزاً للخيال وروح الفكاهة» التي «لا تترك أيّ شيء يمكن تمنيه» ـ كيف يكرم هذه الأنشطة المشبوهة بمهارة! هذا هو رجلنا: لأن فردوسه هو فردوسنا!

على هذا النحو يصرخ المتزمت ويبتهج: وإذا لم نكن راضين كما هو، فالسبب أننا أردنا معرفة المزيد. سأل سكاليجر: «ماذا يعني بالنسبة إلينا

---

(1) هذه العبارة هي من أغنية ألمانية للطلبة.

سواء شرب مونتين النبيذ الأحمر أو الأبيض!». لكن في هذه الحالة الأكثر أهمية كم يجب أن ندّخر مثل هذه المعلومات المفصلة! لو كان بالإمكان فقط معرفة كم عدد الغَلَايين التي يتوجب على المتزمت أن يدخنها كل يوم طبقاً لإملاء الإيمان الجديد، وفيما إذا كان يفضل اسپنسر أو مجلة وطنية National ـ Zeitung عندما يشرب قهوته. تعطشنا للمعرفة غير راضٍ. في نقطة واحدة فقط نتلقى شيئاً مما نرغب فيه، لكن هذا يتعلق بشكل مفرح بفردوس سماوات المتزمت: الحجرات الجمالية الصغيرة الخاصة المكرسة للشعراء والملحنين العظماء التي لا يشيد فيها المتزمت بنفسه فحسب، بل التي فيها وطبقاً لاعترافه «كل عيوبه تُلغَى وتُمحَى» (ص. 363)، بحيث يبدو أننا يجب أن نتصور هذه الحجرات نوعاً من الحمامات الصغيرة. «لكن ذلك للحظات عابرة فقط، ويحدث فقط في عالم الخيال وهو صالح فقط فيه، فحالما نعود إلى الواقع الفظ والجولة اليومية، تطلّ علينا كل الاهتمامات القديمة ثانيةً من كل الجهات ـ على هذا النحو تنهّد معلّمنا شتراوس. ومع ذلك، لو استخدمنا اللحظات العابرة التي سمح لنا بتركها في تلك الحجرات الصغيرة، فسيكون هناك ما يكفي من الوقت للنظر من كل الجهات إلى صورة المتزمّت المثالي، وبكلمة أخرى، *المتزمت الذي قد مُحِيَت كلُّ العيوب عنه*، والذي هو الآن النوع المتزمت في كل نقائه. ما يقدم نفسه هنا هو، بكل جديّة، مفيدٌ: لا تدع أيّ شخص وقع ضحيةً للكتاب الاعترافي يمضي دون أن يكون قد قرأ الملحق «حول شعرائنا العظماء» أو «حول مؤلفينا الكبار». هنا يمتد قوس قزح الطائفة الجديدة، وهذا الذي لا يستطيع أن يحصل على البهجة فيها «يكون بعيداً عن كل مساعدة»، كما يقول شتراوس في مناسبة أخرى، ولكن أمكن

القول هنا: «غير ناضجين بعدُ لوِجِهات نظرنا». لأننا، تذكَّر، في فردوس السماوات. شَرَع المشّاء[1] المتحمس في قيادتنا هنا وهناك، ويعتذر إذا ما تحدث كثيراً بسبب السعادة التي يحصل عليها في هذه الأشياء الرائعة. «إذا بِتُّ صدفةً أكثر ثرثرةً من ما يُحسب ملائماً لهذه المناسبة»، إنه يقول لنا: «فإنني ألتمس حِلْمَ القارئ: من كامل القلب يتكلم الفم. دعه يطمئن، على أية حال، إلى أن ما سيقرؤه الآن ليس مستمَدّاً من كتابات سابقة أُدرِجَت هنا، ولكنه مكتوب للغرض الحالي والمكان الحالي» (ص. 296). هذا الاعتراف يُذهلنا بشكل مؤقت. ما الفائدة التي يمكن أن تكون لنا سواء كانت هذه الفصول الصغيرة الساحرة مكتوبة حديثاً أو لا؟ لو كانت القضية قضية كتابة فقط! أتمنى، فيما بيننا، أن تكون قد كتبت قبل 25 عاماً: لأنني حينئذ سأعرف لماذا تبدو لي الأفكار الموجودة فيها شاحبة جدّاً، ولماذا علقت رائحة الآثار البالية بها. لكن ذلك الشيء المكتوب في عام 1872 الذي سيفوح بشكل عفن في عام 1872 يثير شكوكي. لنفترض أن شخصاً ما غلبه النوم أثناء قراءة هذه الفصول وتشبّع بعِطرها ـ ما الذي يحتمل أن يحلم به؟ صديق لي أعطاني الجواب، لأن الأمر حصل له: لقد حلم بمعرض تماثيل شمع، إذ كان المؤلفون الكلاسيكيون يقفون هناك، قلّدوا بحساسيةِ الشمعَ والأحجارَ الكريمة. حركوا أذرعهم وعيونهم وصرّ لولبٌ في دواخلهم كما فعلوا. من ثم رأى شيئاً غريباً، هيئة بلا شكل ملفوفة بشرائط وورقة مذهبة عليها ملصق معلق من فمها وكُتب عليها «لسينغ». قال صديقي إنه اقترب أكثر وعرف الأسوأ: لقد كان وهماً من نسج الخيال الهوميري، شتراوس

(1) كناية مستمدة من الفلاسفة المشائين [تلاميذ أرسطو] أيام الإغريق.

في المقدمة، وجيرفينوس خلفه، في الوسط غموض[1] ـ باختصار، لسينغ. انتزَعَ هذا الاكتشاف منه صرخة خوف، فاستيقظ ولم يقرأ أكثر. لماذا، يا سيدي، كتبت مثل هذه الفصول الصغيرة المتعفنة من قبل!

من المؤكد أننا تعلّمنا بعض الابتكارات منهم: على سبيل المثال، أن جيرفينوس قد علمنا كيف ولماذا لم يملك غوته موهبة في الدراما، بحيث أنتجَ في الجزء الثاني من فاوست قصة رمزية تخطيطية فقط، وأن فالنشتاين هو ماكبث الذي هو في نفس الوقت هاملت،[2] وأن القارئ الشتراوسي ينتزع القصص من سنوات الهجرة[3] بالطريقة التي ينتزع فيها الأطفال الوقحون اللوزَ والزبيب من كعكة صلبة،[4] إذ بدون الإثارة والمواقف المحرجة لا شيء على المسرح يمكن أن يخلق أي تأثير حقيقي، وأن شِلِر ظهر من كانط كأنه من مؤسسة معالجة مائية. كل هذا بالتأكيد جديد ومذهل، حتى لو لم يُصِبْنا بابتهاج كبير، وبقدر ما هو جديد بالتأكيد، فإنه بالتأكيد لن يصبح عجوزاً، لأنه لم يكن أبداً شاباً: فقد جاء إلى العالم عجوزاً بالفعل. أيّ أفكار باركها النمط الجديد صادف في فردوسهم الجمالي! ولماذا لم ينسوا بأي حال من الأحوال بعضاً منها، خاصة عندما تكون غير جمالية وزمانية ـ مؤقتة وتحمل طابع الغباء كما هو واضح، على سبيل المثال، في بعض آراء جيرفينوس! لكن يبدو غالباً كما لو أن العظمة المتواضعة لشتراوس ودونية جرينوفوس المدّعية يمكن أن تتقاربا معاً بشكل جيد:

---

(1) أو ملتبس يصعب تأويله، ويمكن أيضاً ترجمته إلى «كمير» أو «خيمر» بمعنى كائن ذي ألوان مختلفة، وتأتي أيضاً بمعنى خرافة ووهم.

(2) في دراما فالنشتاين لشِلِر من ثلاثة أجزاء.

(3) بالألمانية Wanderjahre.

(4) رواية غوته سنوات هجرة ڤلهلم مايسترز (1821 ـ 9) التي تتضمن قصصاً مدرجة.

ولهذا تحية إلى كل أولئك المبارَكين، وتحية لنا غير المباركين أيضاً، إذا كان سيستمر هذا القاضي للفن المشكوك به في تعليم حماسته المكتسبة وحصانه المدرّب سريع العَدْو، الذي تحدث عنه غريلبارزر Grillparzer الصادق بكل وضوح، وكل السماء تدوّي بحوافرِ خيل هذه الحماسة السِّباقية! ستكون الأمور أكثر حيوية على الأقل مما هي في الوقت الحالي، عندما يضجرنا و يثير اشمئزازنا الحماس المراوغ البطيء لقائدنا السماوي وبلاغة فمه الفاترة لفترة طويلة فحسب. أود أن أعرف كيف ستبدو هَلّلُويَا[1] في فم شتراوس: أتصور أن على المرء أن يستمع من كثب أو إنها ستتردد كاعتذار مهذب أو ثناء هامس. يمكنني أن أروِيَ مثالاً مثيراً للاهتمام ومروِّعاً عن هذا. اعترض شتراوس بشدّة على إشارات أحد خصومه إلى ركوعه وتصاغره أمام لسينغ ـ أساء الرجل السيئ الحظ فهمه ـ أكد شتراوس، بالطبع، أن الرجل لا بد من أن يكون غبيّاً لئلا يدرك أن الكلمات البسيطة التي استخدمها من لسينغ في القسم 90 [2] قد جاءت مباشرة من حرارة قلبه. الآن، ليس لدي أدنى شك إطلاقاً في وجود هذا الدفء. على العكس من ذلك، لقد شعرت دائماً أن دفء موافقة شتراوس لِلسينغ يمتلك شيئاً مريباً. أجد نفس القَبُول المريب من لسينغ قد ارتفع إلى درجة حرارة البخار عند جيرفينوس. في الواقع، لا يتمتع أيّ من الكتاب الألمان الكبار برواج كبير لدى الكتاب الألمان الصغار كما هو لسينغ. ومع ذلك، لا يستحقون أي شكر على ذلك: إذ ما الذي عند لسينغ يكسب رضاهم حقاً؟ أولاً، شموليته: إنه ناقد وشاعر، عالم آثار وفيلسوف، ومنظّر للدراما ولاهوتي.

---

(1) بمعنى التسبيح باسم الله أو سبحان الله أو الشكر لله.

(2) قسم 90 يشير إلى «الإيمان القديم والجديد» لشتراوس.

ومن ثَم، «هذه الوَحدة للكاتب والإنسان، للعقل والقلب». السمة الأخيرة تميز كل كاتب عظيم، وأحياناً حتى الكاتب الصغير، لأن العقل الضيق يتعافى بشكل رائع مع قلب ضيق. والسمة السابقة، الشمولية، ليست في حد ذاتها تمييزاً على الإطلاق، خاصة في حالة لسينغ، إذ كانت مجرد ضرورة. ما نتعجب منه، بدلاً من ذلك، في أولئك المتحمسين للسينغ هو بالتحديد أنهم فشلوا في ملاحظة هذه الضرورة المستهلكة التي لاحقت لسينغ طَوَال حياته وفرضت عليه «شموليته». إنهم يفشلون في إدراك أن مثل هذا الرجل استُهلك بسرعة كبيرة، مثل اللهب، وليسوا مستائين أن مثل هذا الكائن الرقيق والمتوهّج جُعِل مظلماً، وعُذّب وخُنق بواسطة ضيق كل بيئته المبتذل وفقرها، وخاصة تلك البيئة من معاصريه المتعلمين. إنهم فشلوا في أن يفهموا، في الواقع، أن هذه الشمولية المدهشة أمر يجب أن يوقظ، ليس الإعجاب، بل إحساساً عميقاً بالشفقة. «أشفقوا بالإنسان الاستثنائي»، يصرخ غوته بنا، «لأنه عاش في عصر بائس شديد، فقد كان عليه أن يُجهد نفسه باستمرار بطريقة جدالية».[1] كيف يمكنكم التفكير بلسينغ، أعزّائي المتزمتين، دون الشعور بالخجل: هو الذي هلك من غبائك، في نزاعٍ مع طواطمك وأصنامك المضحكة، من خلال الحالة البائسة لمسارحكم، لباحثيكم ولاهوتييكم، دون أن تكونوا قادرين حتى لمرة واحدة على أن تُقدِموا على ذلك التحليق الأبدي الذي جاء من أجله في العالم. وما هو شعوركم عندما تتذكرون ڤينكلمان الذي حرّر بصره من عبثياتكم الغريبة، وذهب لاستجداء مساعدة اليسوعيين، والذي لا يخزيه تحوّله المخزي هذا بل يخزيكم أنتم؟ هل تجرؤون حتى على نطق

(1) غوته إلى إيكرمان، 7 شباط 1827.

اسم شِلِر دون أن تستحوا؟ انظروا إلى هذه الصورة! العيون اللامعة التي تحدق على رؤوسكم باحتقار، الخدود المحتقنة بالدم بشكل مميت ـ ألا تقول شيئاً لكم؟ هنا كانت دمية مقدسة مَجِيدة التي حطّمتموها. وإذا كانت هذه الحياة المقيّدة والمرهقة بشكل مميت قد حُرمت من صداقة غوته، فقد كان دوركم لإخمادها عاجلاً! لم يتلَقَّ أيٌّ من عباقرتكم العظماء أية مساعدة منكم قط، وهل تريدون أن تجعلوها الآن عقيدة بحيث إن أحداً لا يتسلّم أبداً أيّاً منها؟ فلكل واحد من هؤلاء العباقرة كنتم «مقاومة العالَم البليد» تلك التي ذكرها غوته في خاتمته *لغلوك* Gloke شِلِر. لقد أظهرتم لكل واحد منهم انزعاجاً وافتقاراً إلى الفهم، أو ضيقَ أُفُقٍ حَسُوداً، أو ضغينةً وأنانية: لقد خلقوا أعمالهم على الرغم منكم وضدكم، ووجّهوا هجماتهم، وقد كان بفضلكم أنهم غُمروا في وقت مبكر جدّاً ولم يكتمل عملهم أو تحطم أو مات في النضال. وهل يكون مسموحاً لكم الآن، *كما لو أن الأمور قد تغيرت بصورة جيدة*،[1] الثناء على مثل هؤلاء الرجال! وللقيام بذلك بكلماتٍ تكشف بجلاء مَن هو الذي في بالكم عندما تنطقون بمثل هذا الثناء، الذي «يتدفق بحرارة من القلب» بحيث يتعين على المرء أن يكون أعمى حتى لا يرى إلى من وُجّهت طاعتكم. حتى في أيامه، أَحَسّ غوته مجبَراً ليعلن بقوة: «حقّاً، نحن في حاجة إلى لسينغ!» والويل لكل المعلمين التافهين وللمملكة السماوية الجمالية بأكملها إذا كان يتوجب على النمر الشاب، وطاقته المضطربة الظاهرة في عضلاتٍ منتفخة ونظرة عينيه، أن يُقدِم أبداً على البحث عن فريسة!

---

(1) ترجمة للأصل *tamquam re bene gesta*.

(5)

كم كان صديقي حكيماً، مستنيراً بهذه الشخصية الخيالية المتعلقة بطبيعة لسينغ الشتراوسية وشتراوس نفسه، بأن يمتنع عن قراءة المزيد. ومع ذلك، فقد قرأنا وواصلنا التوسل للدخول في المعبد الموسيقي للإيمان الجديد. فتح الأستاذ الباب، واهتم بجانبنا، وأوضح وسمّى أسماءً ـ وأخيراً توقفنا بريبة ونظرنا إليه: ألم نكن نعاني من نفس الشيء كما حدث لصديقنا المسكين في حلمه؟ ومتى ما كان يتحدث عنهم، بدا الملحنون الذين تحدث عنهم شتراوس قد سُمِّيُوا بشكل خاطئ، وشعرنا أنه لا بد من أن يشير إلى آخرين، إن لم يكن لمجرد إغاضة الأشباح. عندما يتناول، على سبيل المثال، بنفس الدفء الذي جعلنا نشك، عندما أثنى على لسينغ، اسمَ هايدن في فمه ويُنعم على نفسه وصيّاً وكاهنَ طائفةٍ غامضة وهايدنية، بينما في الوقت نفسه (ص. 362) بمقارنة هايدن مع «الحساء الصادق» وبيتهوفن مع «الحلويات» (في إشارة إلى الرباعيات، من كل شيء)، فنحن على يقين من شيء واحد فقط: إن حلويّاته البيتهوفينية هي ليست بيتهوفِنِنَا، وحساءه الهايديني هو ليس هايدِنِنَا. علاوة على ذلك، يكتشف الأستاذ أن أوركسترانا جيدة جدّاً في أداء هايدن الخاص به ويعتقد أن هذه الموسيقى مناسبة فقط للهُوَاة الأكثر كفاية بشكل متواضع ـ برهان مرة أخرى على أنه يشير إلى فنان آخر وإلى أعمال فنية مختلفة (ربما إلى موسيقى ريبل الخاصة بالبيت).

ولكن مَن يمكن أن يكون هذا البيتهوفن الحلواني الشتراوسي؟ من المفترض أنه كتب تسع سمفونيات، ومنها «الرعوي»، وهي «الأقل إلهاماً». نكتشف أنه في ثلاثةٍ منها يكون مجبَراً «ليتحرر من القيود الاجتماعية وينطلق في مغامرة»، والتي توحي لنا تقريباً بمخلوق مهجن، نصف حصان، نصف فارس ضال. فيما يتعلق بسمفونية بطولية[1] معينة، فقد ذكر من هذا القنطور[2] بجدية بأنه فشل في توضيح ما إذا كان ما يحدث هو صراع على ساحة المعركة أو في أعماق قلب الإنسان. في «الرعوي» يوجد «عاصفة فائقة»، التي هي مع ذلك جيدة إلى حد بعيد لتُقَاطِع مجرد رقصة فلاحين، ومن خلال هذا «الاتحاد المتواصل المتقلب» للموسيقى مع «فرصتها المضمرة التافهة»، كما يصفها شتراوس بدقة ويدعوها بشكل صحيح أن هذه السمفونية هي «الأقل إلهاماً» ـ يبدو أن كلمة أكثر قسوة قد طافت فى عقل أستاذنا الكلاسيكي، ولكن، كما يخبرنا هو، فضّل التعبير عن نفسه هنا «بتواضع ملائم». لكن لا، ها هو هنا ولمرة واحدة في الخطأ، وهنا هو حقاً متواضع جداً. فمَنْ هو الآخر الذي يعلمنا عن الحلواني بيتهوفن إن لم يكن شتراوس نفسه، الوحيد الذي يبدو أنه يعرفه؟ ويتبع على الفور، علاوة على ذلك، إصدار حكم صارم ومدّعٍ بشكل غير لائق، وهذه المرة عن السمفونية التاسعة: قد يبدو هذا العمل محبوباً فقط من قبل أولئك الذين يعتبرون الباروك بالنسبة إليهم «علامة عبقرية وبلا شكل كالسامي» (ص. 359). صحيح أن ناقداً صارماً كجيرفينوس رحب بهّا، أي كتأكيد لأحد عقائده، فإن شترواس، مع ذلك، أبعد ما يكون عن

---

(1) إشارة إلى السمفونية الثالثة *Eroica*.

(2) مخلوق نصف حصان ونصف إنسان *Centaur*.

السعي وراء مزايا بيتهوفنه في مثل هذه «النتاجات الإشكالية». «إنه لأمر مؤسف»، يتنهد أستاذنا بحزن، «أنه يجب أن يتضاءل تمتعنا ببيتهوفن والإعجاب الذي نمنحه بكل سرور إليه من خلال تحفظات من هذا النوع». لأن أستاذنا هو المفضل لدى الملهِمِين، وقد أخبروه بأنهم ذهبوا مسافة من الطريق فقط مع بيتهوفن وأنه بعد ذلك فقدَ مرة أخرى رؤيتهم. «هذا عيب»، صرخ، «لكن هل يمكن أن يعتقد أحد أن ذلك يظهر كجدارة أيضا؟». «فهذا الذي يتدحرج على طول الفكرة الموسيقية بكدحٍ ومنقطعَ النفس سيظهر أنه الأقوى وأنه يحرك ما هو أثقل» (ص. 355 ـ 6). هذا اعتراف، وفيما يتعلق لا ببيتهوفن فحسب بل بـ«كاتب النثر الكلاسيكي» ذاته: لا تتركه مصادر الإلهام [ربّات الفنون بنحو حرفي] مطلقاً، المؤلف الشهير: من أخف مسرحية للفكاهة ـ أعني فكاهة شتراوسية ـ إلى ذرى الجدية ـ بمعنى الجدية الشتراوسية ـ إنهم يبقون بثبات إلى جانبه. يحمل، الفنان الكلاسيكي في الكتابة، عبئه بسهولة مرحة، في حين يدحرج بيتهوفن عبئه طويلاً منقطع الأنفاس. يبدو أنه تحبب إلى عبئه: ثمت جدارة. ولكن هل يمكن أن يصدق المرء أنها قد تظهر كعيب؟ ـ لكن على الأغلب فقط لأولئك الذين يعتبرون الباروك علامةَ عبقريةٍ وبلا شكل كالسامي ـ أليس الأمر كذلك، أنك تداعب المفضل من مصادر الإلهام؟

لا نحسد أحداً على التنوير الذي اكتسبه لنفسه في صمت غرفته أو في المملكة السماوية الجديدة التي رُتبت لهذا الغرض، لكن من أغرب أشكال التنوير الممكنة هي الشتراوسية، لأنه ينور نفسه بنيران قربانية صغيرة يُلقي فيها مصادفةً أرقى أعمال الأمة الألمانية لكي يعطّر أصنامه بالدخان الذي تنتجه. دعونا نتخيل أنّ «إيرويكا» و«الرعوية» والسمفونية

التاسعة قد أتيحت لها فرصة الوقوع في يد قسّ مصادر الإلهام، وأنه كان يعتمد عليها بعد ذلك في إبقاء صورة بيتهوفن نظيفة من خلال إزالة مثل هذه «التناجات الإشكالية»، فمن يمكن أن يشك بأنه سيحرقها؟ وهذه في الواقع هي الطريقة التي يسير بها الشتراوسيون في عصرنا: إنهم يريدون معرفة فنان يكون بذلك فقط مناسباً لخدمتهم المحلية، ولا يمكنهم رؤية أيّ بديل سوى استخدامه كعطر أو فإنهم يحرقونه. يجب أن تكون لهم حرية، بالتأكيد، القيام بهذا: الشيء الغريب الوحيد حوله هو أن الرأي العام في القضايا الجمالية غير واضح للغاية وغير مؤكد، ويمكن تضليله بسهولة، إلى درجة أنه يشهد مثل هذا العرض من التزمت التافه بدون احتجاج، بحيث يفتقر في الواقع إلى أيّ إحساس بالكوميديا لمشهد يجلس فيه قاضٍ غير جمالي للحكم على بيتهوفن. أما بالنسبة إلى موتسارت، فيجب أن ينطبق عليه ما قاله أرسطو حقاً عن أفلاطون: «لا يجوز *للرجل السيئ* حتى أن يمدحه». هنا، ومع ذلك، فُقِدَ كلُّ الخزي، من قِبَل الجمهور من جهة، وبمقدار ما من عند الأستاذ. ليس مسموحاً فقط تجاوز نفسه أمام أعظم وأنقى نتاجات العبقرية الألمانية كما لو أنه قد رأى شيئاً ما غيرَ إلهي أو شائناً، لكن اعترافاته الصادقة بالذنوب تُلُقِّيَت بفرحة، لا سيما حين لا يعترف هو نفسه بالذنوب التي ارتكبها، بل بتلك التي ارتكبتها افتراضاً أرواحُنا العظيمة. «آه، لو كان عَلَّامتنا دائماً على حق فقط! يفكر قرّاؤه المعجبون أحياناً بسبيل الشك. ومع ذلك، يقف هو نفسُه هناك، مبستماً ومتأكداً، يخطب، يلعن، يبارك، يرفع قبعته لنفسه، وقادراً في أية لحظة على قول ما قالت الدوقة ديلافورته Delaforte لمدام دو ستال: «عليّ أن أعترف، يا صديقتي العزيزة، أنني لا أعرف مَن هو على حق دائماً سواي».

(6)

تكون الجثة للدودة فكرة بهيجة، ولكلّ شيء حي تكون الدودة فكرة مخيفة. إن فكرة الدودة عن الجنة هي أنها فطيسة سمينة، فكرة الفيلسوف الفلسفية تنبش من كل جهة في أحشاء شوبنهاور، وما دام هناك جرذان فسيكون هناك جُرَذٌ في الجنّة أيضاً. هذا يقدم الجواب عن سؤالنا الأول: كيف يتصور المؤمن جنّته؟ يقيم المتزمت الشتراوسي في أعمال شُعَرَائنا وملحنينا العظماء مثل الدودة التي تعيش عن طريق الهدم، وتُحترم عن طريق الاستهلاك، وتُبجّل عن طريق الهضم.

نأتي الآن إلى سؤالنا الثاني: إلى أيّ مدًى تمتد الشجاعة التي منحها له الإيمان الجديد؟ كان بالإمكان الإجابة عن هذا السؤال أيضاً إذا كانت الشجاعة متطابقة مع عدم الحياء: ففي هذه الحالة، سيمتلك شتراوس شجاعة المماليك ـ ولهذا فالتواضع الملائم الذي يتحدث عنه في المقطع حول بيتهوفن، الذي أُشيرَ إليه للتو، ليس سوى أداةً أسلوبية، وليس موقفاً أخلاقياً. لدى شتراوس ما يكفي من الوقاحة التي يشعر كل بطل منتصر باستحقاقها. كل زهرة تزهر تعود إليه، المنتصر الوحيد، وهو يُثني على الشمس لأنها تضيء نافذته. حتى الكون القديم لا يبقى بمنأًى عن إطراءاته، كما لو أنها وحدها استطاعت تبجيله، ولا بد من الآن فصاعدا أن تدور حول الجوهر الفرد، شتراوس. يخبرنا أن الكون: هو آلة ذات عجلات

حديدية وأذرع تروس وأسطوانات ثقيلة ومكابس، «ولكن التروس العنيفة لا تتحرك كلها في داخلها، فهناك يتدفق أيضاً زيتٌ ملطف» (ص. 365). لن يكون الكون ممتَنّاً تماماً لعلّامتنا المجنون بالخيال لأنه لا يستطيع أن يعثر على استعارة أفضل يمكن أن يمدحه بها، إذا كان، بالفعل، يسعده على الإطلاق أن يشيد به شتراوس. ماذا سُمي هذا الزيت الذي يتقطر على المكابس والأسطوانات؟ وأيّ عزاء يمكن أن يكون للعامل داخل هذه الآلة أن يعرف أن هذا الزيت سُكب إليه بينما تواصل الآلة الإمساك به في قبضتها؟ دعنا نَقُل ببساطة إن الاستعارة هي أمر مؤسف وتُحَوِّل انتباهنا إلى إجراء آخر يسعى من خلاله شتراوس إلى أن ينقل كيف يشعر حقاً تجاه الكون، وفي سياقه هناك يحوم السؤال على شفتيه الذي ظلّ غريتشن يسأله: «يحبني ـ لا يحبني ـ يحبني؟».[1] إذا لم ينتزع شتراوس أثناء هذا بتلات الزهرة أو عَدَّ الأزرار الموجودة على المعطف، فإن ما يفعله ليس أقل ضرراً، على رغم أنه يتطلب المزيد من الشجاعة. يريد شتراوس أن يرى فيما إذا كانت مشاعره تجاه «الكون» قد أصيبت أم لم تصب بالشلل والموت، وهو يَخِز نفسه: لأنه يعلم أنه يمكن للمرء أن يخز ذراعه بإبرة دون أي ألم، ما دامت الذراع مشلولة وميتة. في الواقع، ويقيناً، فهو لا يخز نفسه، إنه يختار إجراءً أكثر عنفاً يصفه على النحو التالي: «نبتدئ بشوبنهاور الذي لم يضيع أيّ فرصة لرمي فكرتنا في الوجه» (ص. 143). ولكن ما دامت ليست فكرة، حتى أعدل فكرة شتراوسية للكون، تملك وجهاً، لكن الذي لديه الفكرة، فإن الإجراء الموصوف هنا يتكون من الأفعال الفردية التالية: يفتتحُ شتراوس شوبنهاور، حيث يغتنم شوبنهاور

(1) من فاوست غوته، الجزء الأول، المشهد 12.

الفرصة ليصفع شتراوس في الوجه. «يردّ» شتراوس الآن، وهو يفعل ذلك «دينيّاً»، بمعنى أنه يردّ على شوبنهاور، يوبخّه، يتحدث عن السخافات، عن التجديفات والأشرار، وحتى يؤكد أن شوبنهاور كان بلا عقل. نتيجة هذا الضرب بالهراوة: «نطالب لكوننا بنفس التقوى التي يقوم بها الورع من الطابع القديم لإلهِهِم». بإيجاز أكثر: «إنه يحبّني!»، إنه يجعل الأشياء صعبة لنفسه، مفضَّلنا من مصادر الإلهام، لكنه شجاع مثل مملوك ولا يخشى الشيطان ولا شوبنهاور. كم أن «الزيت المسكّن» لن يستخدمه إذا انغمس في مثل هذه الإجرات في أغلب الأحيان!

نحن ندرك، من الناحية الأخرى، أن شتراوس مدينٌ حقاً لشوبنهاور المداعب والواخز والضارب بالهراوة، لذلك يفشل العمل الرقيق الصريح التالي تجاهه في إحداث أيّ مفاجأة إضافية فينا. «من الضروري تصفح كتابات آرثر شوبنهاور فقط، على الرغم من أنه يمكن المرء أن يقوم بما هو حسن أيضاً، لا التصفح فيها فحسب، بل ودراستها»، إلخ (ص. 141). من خاطب زعيم المتزمتين بهذه الكلمات حقاً؟ ـ مَن الذي يمكنه إثبات أنه لم يدرس شوبنهاور على الإطلاق، من الذي توجب على شوبنهاور نفسه أن يقول له: «هذا مؤلف لا يستحق أن يُتَصَفَّح، بَلْهَ أن يُدرَس». من الواضح أنه ابتلع شوبنهاور بطريقة خاطئة: من خلال السعال والهمهمة يحاول التخلص منه. ولكن حتى يكون حجم الثناء الساذج كاملاً، يسمح شتراوس لنفسه بأن يوصِيَ كانط العجوز: وهو يطلق على مؤلَّف كانط *التاريخ العام وعقل السماء* لعام 1755 أنه «عمل بدا لي دائماً ليس أقل أهمية من نقده اللاحق للعقل. إذا ما توجب على المرء أن يُعجَبَ بعمق البصيرة في هذا العمل الأخير، ففي الأول ما يعجبه هو اتساع وجهة النظر. إذا رأينا

في الأخير الفيلسوف المسن مشاركاً في تأمين مجال من المعرفة، حتى لو كان محدوداً، ففي الأول نواجه رجلاً مفعماً بكل شجاعة المكتشف الروحي والفاتح». وقد بدا لي دائماً هذا الحكم من جانب شترواس على كانط ليس أكثر تواضعاً من حكمه على شوبنهاور: إذا رأينا في الأخير زعيماً شارك قبل كل شيء في تأمين التعبير عن الحكم، وإن كان محدوداً جداً، فإننا نواجه في الأول كاتب النثر المحتفل به الذي يفرّغ، بكل شجاعةِ الغباءِ، جوهر مديحه حتى على كانط. الحقيقة المذهلة للغاية أن شتراوس ليس لديه فكرة عن كيف يستخلص من نقد كانط للعقل دعماً لمعالجته للأفكار الحديثة، وأنه لم يمدح في كل مكان سوى أقسى نوع من الواقعية، هو من بين أكثر الخصائص إثارة للانتباه لهذا الإنجيل الجديد الذي يقدم نفسه، عِلاوة على ذلك، باعتباره نتيجة تحققت فقط بشكل شاق لبحوث تاريخية وعلمية متواصلة، وبالتالي ينفي أيّ تورط للفلسفة على الإطلاق. بالنسبة إلى الزعيم المتزمت و«نحنُ» خاصته، ليس هناك شيء اسمه فلسفة كانطية. وهو ليس لديه فكرة عن التناقضات الأساسية للمثالية أو النسبية المفرطة لكل العلوم والعقل. أو: إنه العقل بالذات الذي يجب أن يخبره كيف يمكن تحديد القليل من الأشياء في ذاتها عن طريق العقل. ولكن من الصحيح أن أشخاصاً في سن معينة يجدون أن من المستحيل فهم كانط، خاصة إذا كانوا في شبابهم مثل شتراوس، ويفهمون أو يظنون أنهم فهموا هيغل «الروح العملاقة»، وكان عليهم أيضاً أن يشغلوا أنفسهم بشلايرماخر «الذي» كما يقول شتراوس، «امتلك كثيراً جداً من الألمعية». سوف يبدو غريباً على شتراوس، عندما أخبره أنه حتى الآن في حالة «اعتماد مطلق» على هيغل وشلايرماخر، وأن عقيدته عن الكون، طريقته المتعلقة بأشياء

«*في إطار عامين*»،[1] خنوعه لوقائع ألمانيا الحالية، وفوق كل شيء تفاؤله المتزمت الفاضح، يجب توضيحه بالرجوع إلى بعض الانطباعات الشبابية والعادات المبكرة والظواهر المَرَضية. فهذا الذي تعاقد مرة مع الهيغلية والشلايرماخية لن يشفى تماماً منهما أبداً.

هناك فقرة واحدة في الكتاب الاعترافي يسير فيها هذا التفاؤل غير القابل للشفاء إلى جانب جَوٍّ عطلةٍ أكيد من الرضا عن النفس (ص. 142 ـ 3). يقول شتراوس: «إذا كان العالم شيئاً فقد كان من الأفضل أن لا يكون موجوداً، حسناً إذن، فإن فكرة الفلسفة التي تشكل جزءاً من هذا العالم هي فكرة كان من الأفضل عدم التفكير فيها». لا يرى الفيلسوف المتشائم أنه يعلن عن فكره بصورةٍ سيئةٍ، عندما يصرحُ فكرهُ أن العالم سيئ، لكن إذا كان فِكْر الذي يعلن أن العالم سيئ هو تفكير سيئ في حد ذاته، فإن العالم، على العكس من ذلك، جيد. التفاؤل قد يجعل، كقاعدة عامة، الأمور سهلة للغاية لنفسها، وهنا إصرار شوبنهاور على الدور الذي يلعبه الألم والشر في العالم في محله تماماً. لكن كلّ فلسفة حقيقية هي بالضرورة متفائلة، لأنها خلاف ذلك تنكر حقها في الوجود. إذا كان دحض شوبنهاور ليس هو نفسه كذلك الذي يسميه شتراوس في مكان آخر «دحضاً للفرح الصاخب في المجالات العليا»، فإنني لا أفهم هذا التعبير المسرحي الذي استُخدِمَ مرةً ضد الخصم. لقد جعل التفاؤل بتروٍّ ولمرة واحدة الأشياء سهلة للغاية لنفسها. لكن حيلة الشيء بالتحديد لجعل الأمر يبدو كما لو أن دحض شوبنهاور لم يكن عناءً على الإطلاق والتخلص من عبء المرء

---

(1) ترجمة حرفية لـ *sub specie bienni*، وهي تعديل نيتشه الساخر للعبارة المشهورة «sub specie aeternitatis».

بهذه السهولة المازحة، بحيث ستأخذ ربات الفنون الثلاث بهجةً مستمرة في المتفائل المحبب. يجب تحقيق هذا عبر إظهار أنه ليست هناك حاجة إلى أخذ أيّ تشاؤم على محمل الجد: فأكثر السفسطائيين تكبراً سيتعامل مع فلسفة «معتلّة وغير مربحة»، مثل فلسفة شوبنهاور التي لا يحتاج المرء إلى أن يصرف عليها حججاً، بل نكاتٍ وعبارات على الأكثر. في ضوء مقاطعَ كهذه، يفهم المرء تأكيد شوبنهاور الفريد، حيثما لا توجد هناك ثرثرة طائشة لأولئك الذين لا يوجد تحت جمجمتهم المسطحة أفكارٌ بل كلمات فقط، يبدو التفاؤل بالنسبة إليه ليس مجرد عبث ولكن *طريقة تفكير شائنة حقاً*، سخرية مريرة لمعاناة الإنسانية المجهولة. عندما يحوّله المتزمت إلى نظام، كما يفعل شتراوس، فإنه يختزله أيضاً إلى طريقة تفكير شائنة، بمعنى إلى مذهب عقلي غبي سهل وراضٍ بشكل غير منتظم لصالح «الأنا»، أو «نَحنُ»، ويثير الاستياء.

مَن يستطيع، على سبيل المثال، قراءة التفسير النفسي التالي دون الشعور بالسخط، ما دام أنه، من الواضح تماماً، انبثق فقط من أصل هذه النظرية السهلة والراضية الشائنة: «قال بيتهوفن إنه لن يكون قادراً على تأليف مثل هذا النص *كفيغارو أو دون جيوفاني. الحياة لم تبتسم له لدرجة أنه كان يمكن أن يتبنى وِجهة نظر مبهجة عنها للغاية بحيث يتناول* نقاط ضعف البشرية بيسر» (ص. 361). لكن أسوأ مثال على هذا الابتذال الشائن للعقل وُفِّرَ في حقيقة أن شتراوس لا يعرف أيّ وسيلة أخرى ليوضّح لنفسه الدافع الجدي بشكل مخيف لنكران الذات والخلاص في الزهد الذي ظهر في القرون الأولى من المسيحية أكثر من افتراض نشأتها في شراهة سابقة من الانغماس الجنسي بكل أنواعه والاشمئزاز والغثيان الذي نتج عن:

يسميه الإيرانيون *bidamag buden*،

بينما يطلق عليه الألمان *Katzenjammer*. [1]

يقتبس شتراوس نفسه هذه السطور ولا يخجل. مع ذلك، فإننا ننصرف للحظة كي ننتصر على القرف لدينا.

(1) البيتان من «الديوان الشرقي الغربي» لغوته. أما كلمة *Katzenjammer* فتعني آثار السكر، أو «الندم على فجور الليلة السابقة».

(7)

زعيمنا المتزمت في الواقع شجاعٌ بالكلمات إلى درجة الاندفاع كلما اعتقد أنه سيبهج «نَحنُ» النبيلة بمثل هذه الشجاعة. وهكذا، يمكن اعتبار الزهد وإنكار الذات للقديسين والنسّاك القدامى شكلاً من أشكال *آثار السكر*.[1] يمكن أن يوصف يسوع بأنه صاحب رؤية كان بالكاد سيتجنب في أيامنا مستشفى المجانين، وقد تسمى قصة القيامة «قطعة من الهُراء التاريخي العالمي» ـ دعونا ندع مرة واحدة كل هذا يمر، حتى نتمكن من دراسة الشجَاعة الفردية التي يقدر عليها شتراوس «متزمّتنا الكلاسيكي».

دعونا أولاً نسمع اعترافه: «إن إخبار العالم بشيء هو أقل ما يريد سماعه، هو بالتأكيد عمل مزعج وجاحد. إنه مثل العيش دون عناء، مثل لورد عظيم يتسلّم ويدفع ما دام كان لديه أي شيء يدفعه: ولكن عندما يتوصل شخص ما إلى حساب المواد ويسلمه فاتورة، فإنه يعدّه صانع أذًى. وهذا هو بالضبط ما قد أجبرني عليه رأسي وقلبي إلى القيام به». قد يطلق على مثل هذا الرأس والقلب بشكل جيد شجاعين، ومع ذلك يظل من المشكوكِ فيه ما إذا كانت هذه الشجاعة طبيعية ومبتكرة أو لم تكن بالأحرى مكتسبة ومصطنعة. ربما عوّد شتراوس نفسه على أن يكون صانع

(1) بالألمانية في الأصل *Katzenjammer*.

أذًى عبر هذه المهنة بشكل تدريجي فقط، حتى اكتسب من هذه المهنة الشجاعة لها. هذا ينسجم بشكل جيد مع الجبن الطبيعي، كما هو مناسب للمتزمت: إنه يكشف عن نفسه من خلال تلك التأكيدات التي تتطلب الشجاعة للقيام بها. هناك صوت الرعد، ولكن ليس هناك ما يعقبه لتنقية الهواء. ليس بوسعه إدارة عمل عدواني، بل كلمات عدوانية فحسب، لكنه يختار الكلمات الأكثر عدوانية التي يمكن أن يجدها ويستنفد كل قوته وطاقته في تعابيرَ خرقاء ومتبجحة: عندما تلاشت كلماته، فإنه أجبن من الذي لم يتحدث أبداً. حتى الشكل الوهمي للأفعال والأخلاق يكشف أنه بطل بالكلمات فقط، وأنه يتجنب كلّ مناسبة يكون من الضروري له أن ينتقل فيها من الكلمات إلى الجديّة المتجهمة. يعلن بصراحة مثيرة للإعجاب أنه عاد ليس مسيحياً، لكنه لا يرغب في إزعاج سلام عقل أي شخص، إذ يبدو له متناقضاً إقامةُ جمعية من أجل الإطاحة برابطة ما ـ وهذا في الحقيقة ليس متناقضاً جداً. ببعض قناعة وقحة يخفي نفسه بعباءة ذات شعر لعلماء أنساب القرد لدينا، ويثني على دارون كأحد أكبر المحسنين للجنس البشري ـ لكنه يربكنا لنرى أن علم أخلاقه مبنيٌّ بشكل مستقل تماماً عن السؤال: «ما مفهومنا للعالم؟». كانت هنا فرصة لعرض الشجاعة الفطرية: لأنه هنا يجب أن يكون قد أدار ظهره لـ«نَحنُ»، واستخلص بجرأة مدوّنة أخلاقية للحياة انطلاقاً من حرب *الجميع ضد الجميع*[1] وامتيازات القوي ـ على رغم أن مثل هذه المدونة يجب أن تنشأ، يقيناً، في عقل جريء مثل عقل هوبز، وفي حب كبير للحقيقة يختلف تماماً عن ذلك الذي ينفجر في ثورات غاضبة فقط ضد القساوسة والمعجزات و«الإهمال التاريخي

(1) ترجمة للأصل اللاتيني المأخوذ من هوبز *Bellum omnium contra omnes*.

العالمي» للقيامة. لأنه بأخلاقيات دارونية حقيقية، نُفِّذَت بجديّة وثبات، كان سيعارضه المتزمت الذي ينجذب بمثل هذه الانفعالات إلى جانبه.

يقول شتراوس: «كل سلوك أخلاقي هو تقرير مصير للفرد وفقاً لفكرة النوع»، مترجمةً إلى لغة مفهومة، كل هذا يعني: عِش كإنسان وليس كقرد أو فُقمة! لسوء الحظ، فإن هذا الأمر الإلزامي دون قوة وبلا فائدة كلياً، لأن مفهوم الإنسان يجمع أكثر الأشياء تنوعاً وتعدداً معاً، على سبيل المثال الباتاغوني[1] والأستاذ شتراوس، ولأن لا أحد سوف يجازف بالمطالبة: «عش كباتاغوني!» وبنفس الوقت «عش كالأستاذ شتراوس!». ومع ذلك، إذا توجب لأيّ شخص أن يذهب إلى أبعد من ذلك للمطالبة من نفسه: «عش كعبقري»، أي كتعبير مثالي عن نوع الإنسان، ولكن صادف أن يكون إما باتاغونياً أو العلّامة[2] شتراوس، فكم ينبغي أن نعاني بعد ذلك من إزعاجات الحمقى الطبيعيين المتعطشين إلى العبقري ليختنبرغ في زمنه، وكان عليه أن يشكو بالفعل من نموهم الشبيه بالفطر في ألمانيا ـ ويطالبوننا بصراخ وحشي بأن نصغي إلى آخر اعترافاتهم[3] عن الإيمان. لم يتعلم شتراوس حتى الآن أنه لا توجد فكرة يمكن أن تجعل البشر أفضل أو أكثر أخلاقية، وأن الوعظ بالآداب أمر سهل مثلما أن العثور على أسس لها صعب. كانت مهمته، بالأحرى، تناول ظواهر الخير الإنساني والرحمة والحب والتخلي عن الذات، التي هي في الواقع موجودة، واستنباطها

---

(1) مواطن يقطن في منطقة هضبات أمريكا الجنوبية التي تمتد من جنوبيّ الأرجنتين حتى جنوب تشيلي.

(2) أحياناً أترجمها إلى أستاذ أو سيد حسب سياق العبارة.

(3) الاعتراف هنا بمعنى الإقرار الديني للإيمان.

وشرحها من افتراضاته الداروينية: بينما فضل بقفزة إلى الإلزامية[1] الهرب من مهمة التفسير. بالقيام بهذه القفزة، بات قادراً حتى على التملص، من خلال قفزة سهلة وتافهة، من افتراض دارون الأساسي. يقول شتراوس: «لا تنسَ أبداً أنك إنسانٌ وليس مجرد مخلوق من الطبيعة: ولا تنسَ أبداً أن جميع الآخرين هم بشر بالمثل، بمعنى بكلّ فروقهم الفردية نفسها كما أنت، بنفس الاحتياجات والمطالب كما أنت ـ هذه هي خلاصة الأخلاق». لكن من أين تبدو هذه الإلزامية؟ كيف يمكن للإنسان أن يمتلكها في نفسه، ما دام، وفقاً لدارون، مخلوقَ الطبيعة بالذات وليس شيئاً آخر، وقد تطوّر إلى ذروة كونه إنساناً من خلال قوانينَ أخرى تماماً: على وجه التحديد، في الواقع، من خلال النسيان باستمرار أن المخلوقات الأخرى الشبيهة له تمتلك حقوقاً متكافئة، بالتحديد، من خلال الشعور بنفسه الأقوى فيقضي على الآخر تدريجياً، النماذج الأضعف من جنسه؟ في حين أن شتراوس كان ملزماً بأن يفترض أنه لم يكن هناك مخلوقان متشابهان تماماً، وأن كامل تطوّر الإنسان من مستوى الحيوانات وحتى ذرى المتزمت الثقافي يعتمد على قانون الاختلافات بين الأفراد، فإنه لا يجد صعوبة في أن يُفصح عن العكس: «يتصرف كما لو لم تكن هناك اختلافات بين الأفراد». أين ذهبت التعاليم الأخلاقية لشتراوس ـ دارون الآن، أين اختفت كل شجاعة أيّاً كانت!

لقد حصلنا على الفور على عرض جديد للنقطة التي نُقِلَت عندها الشجاعة إلى نقيضها. لأن شتراوس يواصل: «لا تنسَ أبداً أنك وكل من تعرفه في داخلك ومن حولك هم ليسوا جزءاً منفصلاً، ولا فوضى لذراتٍ

(1) يمكن ترجمتها أيضا بالحُكمية، الضرورية، الحتمية.

وحوادثَ مضطربة، ولكن كل شيء ينطلق وفقاً لقوانينَ أبدية من مصدر أولي واحد لكل الحياة، ولكل عقل وكل خير ـ ذلك هو خلاصة الدين». مع ذلك، يتدفق، في نفس الوقت، من هذا «المصدر الأولي» كلّ الدمار وكل اللا عقلاني وكلّ الشرّ، وشتراوس يسمي هذا المصدر الكليّ. لكن كيف سيكون هذا جديراً بتبجيل ديني على افتراض أنه يمتلك شخصية متناقضة للغاية ومُلغِية لنفسها، وأن يُخاطَب باسم «اللّه»، كما يقوم شتراوس نفسه بمخاطبته (ص. 365): «إلهنا لا يأخذنا بين ذراعيه من الخارج» ـ هنا يتوقع المرء حقاً فرضية مناقضة بالتأكيد غريبة للغاية: «يأخذنا بين ذراعية من الداخل»! ـ وهو يكشف لنا عن مصادر العزاء فينا. يوضح لنا أنه على الرغم من أن الصدفة ستكون سيداً غير عقلاني للعالم، فإن الضرورة، أي سلسلة الأسباب في العالم، هي العلّة[1] ذاتها» (قطعة من السريّة التي الـ«نَحنُ» فقط يمكن أن تفشل في إدراكها على هذا النحو، لأنها رُبِّيت في هذه العبادة الهيغلية للحقيقة كأنها العقلانية، وهذا يعني في *تأليه النجاح*). «إنه يعلمنا أن نرى أن الرغبة في الحصول على استثناء لتحقيق قانون واحد للطبيعة سيكون الرغبة في تدمير الكون». على العكس من ذلك: عالم طبيعي نزيه يعتقد أن العالم يتوافق دون قيد أو شرط مع قوانين، دون أن يؤكد أي شيء فيما يتعلق بالقيمة الأخلاقية أو الفكرية لهذه القوانين: إنه يعتبر أيّاً من هذه التأكيدات تجسيداً مفرطاً للعقل الذي جاوَزَ حدود المسموح به. ولكن في هذه النقطة بالتحديد، التي يستقيل عندها العالم الطبيعي الصادق، يتجاوب شتراوس ـ من أجل تزييننا بريشه ـ «دينياً»، ويواصل بوعي بمتابعة نوع غير صادق من العلم الطبيعي. إنه يفترض أن

(1) أو العقل في حد ذاته.

جميع الحوادث تمتلك دائماً شكاً أعلى قيمة فكرية، وبالتالي فهي عقلانية وهادفة بشكل مطلق، ومن ثَم فهي تحتوي على وحي الخير الأبدي ذاته. وهكذا فهو بحاجة إلى كونية إلهية[1] كاملة وفي وضع غير مؤاتٍ مقارنةً مع أولئك الذين يهتمون فقط بالعدل الإلهي، الذين يتصورون وجود الإنسان بأكمله باعتباره، على سبيل المثال، عقاباً أو عملية تطهير. عند هذه النقطة، وعلى نحو حائر، يذهب شتراوس إلى حد المغامرة لمرة واحدة في فرضية ميتافيزيقية ـ وهي الأكثر جفافاً والأكثر شللاً من أيّ قت مضى، ولم تكن في النهاية أكثر من محاكاة ساخرة لا واعية لقول لسينغ. «هذا القول الآخر للسينغ»، يقول في الصفحة 219، «إذا كان الله يمسك كل الحقيقة في يده اليمنى، وفي يده اليسرى البحث الذي لا ينام أبداً عن الحقيقة بشرط أن يخطئ باستمرار في هذا البحث، ثم عرض عليه الاختيار بينهما، فسينهال بكل تواضع على يدّ الله اليسرى ويتوسل من أجل محتوياتها ـ كان هذا القول يعتبر دائماً من بين أحسن ما تركه لنا. لقد عُثِر فيه على تعبير عن رغبته المضطربة من أجل العمل والاستقصاء. ترك هذا القول دائماً انطباعاً قوياً جداً عليّ لأنني سمعت خلف أهميته الذاتية رنيناً لمغزًى موضوعي ذي نطاق هائل. أفلا يحتوي على أفضل ردّ على مفهوم شوبنهاور الفظ عن إله أرعن لا يعرف أيّ شيء يفعله أفضل من الدخول في عالم بائس كما هو الحال؟ ألا يكون الخالق نفسه يشارك رأي لسينغ ويفضل البحث المستمر على امتلاك سلمي؟». إله، وهذا يعني الذي يحتفظ لنفسه *بخطأ* مستمر وفي نفس الوقت بسعي من أجل الحقيقة، والذي ربما سينهال بتواضع على يد شتراوس اليسرى ويقول له: كل الحقيقة لك. إذا كان هناك إله

(1) ترجمة لـ Cosmodicy، وهي بمعنى عمل أو خطاب يبرر طرق الكون.

أو إنسان أرعن على الإطلاق، فقد كان هذا هو الإله الشتراوسي، بتحيزه للخطأ والفشل، الإنسان الشتراوسي الذي يتعين أن يدفع ثمن هذا التحيز ـ هنا يمكن للمرء في الواقع أن «يسمع رنيناً لمغزًى ذي نطاق هائل»، هنا يتدفق زيت شتراوس المسكّن الكوني، هنا يتحسس المرء شيئاً من العقلانية لكل تطور وقانون طبيعي! هل يفعل المرء حقاً؟ أو ألا يكون عالمنا، على الأصح، كما أطلق عليه ليختنبرغ ذات مرة، عمل المخلوق الخاضع الذي كان يفتقر حتى الآن إلى الفهم الكامل لمهمته، وبالتالي إلى خبرة؟ قطعة اختبار المترهبن[1] [المبتدئ] التي كان ما يزال يعمل عليها؟ بحيث إن شتراوس نفسه يضطر إلى الاعتراف بأن عالمنا هو مجال ليس من عقلانية، بل من خطيئة، وأن قوانينه وأهدافه ليسا مصدر عزاء، لأنها تُطلق من إله ليس في خطأ وحسب، بل ويسعد في وقوعه في خطأ. إنه مشهد جميل حقاً أن ترى شتراوس كمهندس عِمَاري ميتافيزيقي يبني في الغيوم. لكن لمن يُقام هذا المشهد؟ من أجل «نحن» النبيلة والقنوعة، من أجل الحفاظ على رضاهم: ربما تُغُلِّبَ عليهم بالخوف في وسط تلك العجلات التي لا ترحم من الآلة العالمية وتوسلوا برعشة إلى زعيمهم للحصول على مساعدة. لذلك بدأ شترواس بدلق «زيت مسكّن»، اندفع على إله يأثم بسبب شغفه بالخطأ، وينتحل لمرة واحدة دورَ المعمار الميتافيزيقي غير المناسب تماماً. إنه يفعل كل هذا لأن «نَحنُ» خائفة وهو نفسه خائف ـ وهنا نكتشف حدود شجاعته، حتى فيما يتعلق بـ«نحن». لأنه لا يجرؤ على إخبارهم بصدق: لقد حررتكم من إله معين ورحيم، والكون مجرد آلة جامدة، خذ الحذر أن لا تُمسخ بعجلاتها! لا يجرؤ على القيام بهذا:

---

(1) إشارة إلى الداخل حديثاً في المسيحية.

لهذا كان عليه أن ينادي الساحرة، أي الميتافيزيقا. مع ذلك، بالنسبة إلى المتزمت، حتى الميتافيزيقا الشتراوسية تكون مفضلة للمسيحي، وفكرة إله مخطئ أكثر جاذبية من فكرة صانع معجزة. لأن المتزمت ذاته يرتكب أخطاء، لكن لم ينجز معجزاتٍ أبداً بعدُ.

لهذا السبب بالذات يكره المتزمتُ العبقريَّ: لأن العبقري لديه سمعة مبررة في أداء المعجزات، وهذا هو السبب في أن الأمر تنويري بدرجة عالية أن نرى لماذا يقدم شتراوس نفسه مرة واحدة في مقطع منعزل كمدافع جريء عن العبقري وعن الطبائع الأرستقراطية للروح. لماذا يفعل هذا؟ من الخوف، هذه المرة الخوف من الديمقراطيين الاجتماعيين. إنه يحيلهم على بسمارك، مولتكه، «اللذين يمكن أن تكون عَظَمَتهما مرفوضة بشكل أقل بينما يتقدمان في عالم العمل الملموس». والآن يجب أن يجبر، حتى الأكثر تصلباً في الرأي وطبعاً من كل هؤلاء الزملاء، على أن ينظروا إلى الأعلى قليلاً، حتى يتسنى لهم رؤية هذه الشخصيات المرموقة، حتى ولو إلى الركبة فقط. هل ترغب ربما، يا أستاذ، في إعطاء تعليمات للديمقراطيين الاجتماعيين بكيفية التعرض للركل؟ الرغبة في تسديد مثل هذه الركلات موجودة في كل مكان، وعلى أيّ حال، أنّ أولئك الذين يُعَرضون للركل يمكنهم أن يروا فقط «إلى مستوى الركبة» من هذه الشخصيات المرموقة يبدو أنه يضمن تسديد الركلات بنجاح. «في مجال الفن والعلوم أيضاً»، يواصل شتراوس، «لن يكون هناك أبداً نقصٌ في الملوك الذين يبنون والذين يقدمون عملاً إلى سوّاق عربات النقل». جيد، ولكن لنفترض أن السائقين أنفسهم بدؤوا في البناء؟ وهذا يحدث، أيها العلّامة الميتافيزيقي، أنت تعرف ذلك ـ وبالتالي سيُضطر الملوك إلى ابتسامة عريضة وحملها.

هذا الاتحاد من الجرأة والضعف، من الكلمات الطائشة والرضا الجبان، هذا التقييم الرفيع بكيفية وبأي تعابير يمكن للمرء أحياناً أن يؤثّر في المتزمت، وأحياناً يداهنه، هذا الافتقار إلى الشخصية والقوة يتنكر كعزيمة وشخصية، هذا الخلل في الحكمة بالتظاهر بالتفوق والتجرِبة الناضجة ـ كل هذا في الواقع هو ما أكرهه في هذا الكتاب. إذا ظننت أن الشباب يمكنهم أن يتحملوا مثل هذا الكتاب، أو حتى أن يثمنّوه، فإنني بكل أسف أنكر كلّ أمل لمستقبلهم. هذا الاعتراف عن الشفقة، واليأس، والتزمت التافه يعرض نفسه كتعبير عن وجهات نظر آلاف عديدة من الـ«نحن» التي يتحدث عنها شترواس، وهذه الـ«نحن» [بالجمع] هي بدورها آباء الجيل القادم! هذه هي افتراضات مروّعة لأيّ شخص يريد مساعدة الجيل القادم إلى ذلك الذي لا يملكه الحاضر ـ لثقافة ألمانية حقيقية. لمثل هذا تبدو الأرض منثورة بالرماد وتبدو كلّ النجوم محجوبة. كلّ شجرة ميتة، كلّ حقل أجرد يصيح به: يا عقيم! يا ضائع! هنا لن يكون هناك ربيع آخر! ويجب عليه أن يشعر مثلما شعر الشاب غوته عندما نظر إلى الأفول الإلحادي *لنظام الطبيعة*:[1] بدا الكتاب له كيميريّاً[2] جداً، وجامداً جداً، وميتاً للغاية، بحيث كلّفه جهداً كي يتحمل متاخمته، وارتجف في حضرته كما في حضرة شبح.

---

(1) اسم كتاب بارون دولباخ الذي طرح فيه نظريته المادية الملحدة ومذهبه في الحتمية، عام 1770. أما حديث غوته عن ذلك فكان في سيرته الذاتية *Dichtung und Wahrheit*، الجزء الثالث.

(2) الكيمريُّون هم شعب توهم وجوده هوميروس وقال عنه إنه يعيش في ظلام دائم.

(8)

الآن اطّلعنا على تعليمات كافية فيما يتعلق بفردوس المؤمن الجديد وشجاعته لنكون قادرين على طرح سؤالنا الأخير: كيف يكتب كتبه؟ وما طبيعة الكتب المقدسة في دينه؟ بالنسبة إلى من يمكنه الإجابة عن هذا السؤال بصرامة ودون تعصب، فإن حقيقة وحي شتراوس الإلهي المحمول للفنان الألماني كان مطلوباً في حدود ستة طبعات ستشكّل مشكلة من النوع الأكثر إثارة للتفكير، خاصة عندما يسمع أنه قد تلقّى ترحيباً حاراً أيضاً في الأوساط الأكاديمية، وحتى في الجامعات الألمانية. ويقال إن الطلاب استقبلوه كمنهج دراسي لتدريب العقول القوية، ويقال إن الأساتذة لم يعترضوا: هنا وهناك، تُسُلِّمَ الكتابُ *كنص مقدس للباحثين*. ينعم علينا شتراوس نفسه بأن نفهم أن الكتاب المذهبي ليس المقصود منه تقديم إرشادات للباحثين أو المثقفين فقط، بل إننا نتمسك بالرأي القائل بأنه موجّه نحو هؤلاء في المقام الأول، ولا سيما الباحثين، وأنه يعرض لهم انطباعاً عن الحياة كما يعيشونها بأنفسهم. لأن هذه هي خدعة الأمر: يؤثر الأستاذ على أنه يحدد المثال لفلسفة جديدة للحياة، والآن يسمع نفسه ممدوحاً من كل جانب، ما دام أن كل شخص في وضعية للاعتقاد بأن هذا هو بالضبط ما يفكر هو به، وأن شتراوس سيرى أنه قد تحقق فيه بالفعل ما لم يطلبه إلا من المستقبل فقط. هذا جزء من النجاح الاستثنائي لهذا الكتاب: «كما هو مكتوب هنا نعيش ونمضي في طريقنا فرحين!»، يصرخ

الباحث عليه، وهو سعيد عندما يجد أن الآخرين يشعرون بنفس الشيء. سواء حدث له أن اختلف عن الأستاذ حول نقاط فردية ـ حول دارون، مثلاً، أو عقوبة الإعدام ـ فهي بالنسبة إليه لحظة صغيرة، ما دام على العموم متأكداً جداً من تنفسه الهواء وسماع صدى صوته واحتياجاته. يجب ألا يثني ألم هذا الإجماع أي صديق حقيقي للثقافة الألمانية عن الاعتراف به لنفسه أو من جعل الحقيقة علنية.

نعلم جميعاً كيف كان عصرنا مثالاً في سعيه العلمي. نحن نعرفه لأنه جزء من حياتنا: وذلك هو بالتحديد السبب أن لا أحد يسأل تقريباً نفسه ما العواقب التي يمكن لمثل هذه المشاركة في العلوم أن تكون للثقافة، حتى لو افترضنا أن الإرادة والقدرة على تعزيز الثقافة كانت في متناول اليد في كل مكان. لأن طبيعة الإنسان العلمي (بصرف النظر عن الشكل الذي يتخذه حالياً) تحتوي على مفارقة حقيقية: إنه يتصرف مثل غني كسول أكثر افتخاراً، كما لو أن الوجود لم يكن شيئاً مخيفاً ومشكوكاً فيه، بل مِلك ثابت مضمون استمراره إلى الأبد. يبدو أنه قد سمح بتبديد حياته على أسئلة أمكن أن تكون أجوبتها في الأساس نتيجةً فقط لشخصٍ ضُمن له الخلود. الوريث لساعات قليلة، يكون محاصراً بهاويات مخيفة، وكلّ خطوة يتخذها يجب أن تجعله يسأل: إلى أين؟ من أين؟ إلى أيّ نهاية؟ لكن روحه تُدَفّأ بمهمة عَدِّ أسديَة[1] الزهرة أو تكسير حجارة الدرب، ويُستَوعَب كل الاهتمام، والفرح، والقوة، والرغبة التي يمتلكها في هذا العمل. الآن، هذه المفارقة، أي الإنسان العلمي، قد دخلت بسرعة محمومة في السنوات الأخيرة في ألمانيا، كما لو أن العلم كان مصنعاً، وتسبب كل دقيقة تأخير

(1) سداة الزهرة هي عضوها الذكري.

عقاباً. في الوقت الحاضر، يعمل بشكل شاق مثل المنزلة [الطبقة] الرابعة، العبيد. عادت دراسته لا تكون مهنة بل ضرورة، فهو لا ينظر إلى اليمين أو اليسار ويتصفح كل حقل من الحياة، وأكثر جوانبها المشكوك فيها، بنصف الوعي أو الحاجة البغيضة للترفيه، أي سمة العامل المرهق.

هذا هو حالياً سلوكه تجاه الثقافة أيضاً. كان يتصرف كما لو أن الحياة بالنسبة إليه كانت *كسلاً بلا كرامة*،[1] وحتى في أحلامه لم يتخلص من نيره، كالعبد الذي ما يزال يحلم بالعبودية والضرب حتى حين يُحَرَّر. بالكاد يمكن تمييز باحثينا ـ ومن ثم ليس لصالحهم ـ من المزارعين الذين يرغبون في زيادة الملكية الصغيرة التي ورثوها ويعملون بمثابرة طوال اليوم وحتى الليل في حراثة الحقل، يقودون المحراث ويحثّون الثيران. حالياً، يعتقد باسكال بصورة عامة تماماً أن البشر يتابعون أعمالهم وعلومهم بحماسة كبيرة فقط حتى يتسنى لهم التهرب من أكثر الأسئلة المهمة التي من شأنها أن تضغط عليهم في حالة العزلة أو إذا كانوا خاملين حقاً. بعبارة أخرى، تلك الأسئلة على وجه التحديد إلى أين، ومن أين، ولماذا. ومن المثير للدهشة أن السؤال الأكثر وضوحاً لا يخطر على بال باحثينا: من أجل ماذا عملهم، واستعجالهم، وتوترهم المؤلم من المفترض أن يكون؟ أَلِكَسب الخبز أم الحصول على وظائف شرف، ربما؟ لا، على الإطلاق. ومع ذلك، فأنتم ترهقون أنفسكم مثل أولئك الذين يحتاجون إلى الطعام، بل إنكم تنتزعونه من طاولة العلم بجشع وبصورة غير انتقائية تماماً كما لو كنتم على شفا المجاعة. ولكن إذا كنتم، كرجال علم، تتعاملون مع العلم بالطريقة التي يتعامل بها العامل مع المهام التي توفر له وسائل الحياة، فماذا

---

(1) في الأصل otium sine dignitate.

ستصبح ثقافة محكوم عليها بانتظار ساعة ميلادها وخلاصها في خضم هذه الإثارة والارتباك اللاهث؟ لا أحد لديه الوقت لذلك ـ ومع ذلك، ما العلم على الإطلاق إذا لم يكن لديه وقت للثقافة؟ أجب عن هذا السؤال على الأقل: إلى أين، ومن أين، وأيّ غرضٍ للعلم إذا لم يكن يؤدي إلى الثقافة؟ أيؤدي إلى البربرية، ربما؟ بدا واضحاً أن طبقتنا المتعلمة قد ذهبت بالفعل بعيداً بشكل مخيف في هذا الاتجاه، عندما نعتقد أن مثل هذه الكتب السطحية ككتب شترواس كافية لتلبية متطلبات مستواها الثقافي الحالي. لأننا نجد في هذه الكتب، على وجه التحديد، تلك الحاجة الكريهة إلى الترفيه وذلك التكيف الطارئ نصف المصغي إلى الفلسفة والثقافة وأمور الحياة الخطيرة بشكل عام. يُذَكَّر المرء بالعالم الاجتماعي للطبقات المتعلمة، عندما يُستَنفَد الحديث عن العمل، حيث هناك أيضاً دليل فقط على الإرهاق، وعلى رغبة في التَّسرِية بأي ثمن، وعلى ذاكرة مضطربة وتجرِبة شخصية غير متماسكة. عندما نسمع شتراوس يتحدث عن قضايا الحياة ـ سواء أكانت قضية زواج أم قضية حرب أم حكماً بالإعدام ـ نُذعر لافتقاره إلى تجربة حقيقية، وإلى أيّ نظرة أصلية إلى طبيعة الإنسان: كلّ أحكامه كُتُبيّة بشكل موحّد، في الواقع، من النوع الموجود في الأساس في الصحف: ذكريات أدبية تحلّ محل الأفكار الحقيقية والرؤى، اعتدال مُتصنَّع واطلاع من المفترض أن يعوضنا عن افتقارٍ إلى الحكمة الحقيقية ونضج الأفكار. كيف يتطابق هذا بالضبط مع الروح التي تبلغ عن مقاعد التعليم العالية المعلنة بصخبٍ في مدن ألمانيا! ما أشدّ ما ينبغي أن تجد هذه الروحُ روحَ شتراوس متجانسةً: إذ في هذه الأماكن بالتحديد أشد ما تكون الثقافة مُفتَقَراً إليها، فهناك بالضبط يُحبَط إنبات ثقافة جديدة تماماً.

التحضير الصاخب للعلوم التي تُتَّبَع يتماشى مع تدافع شبه القطيع من أجل مجالات أكثر تفضيلاً على حساب التخلي عن تلك الأكثر أثراً. بأي نوع من المصابيح يجب على المرء أن يبحث هنا عن بشر قادرين على تبصّر داخلي وإخلاص موحّد للعباقرة، ويمتلك العزيمة والشجاعة لاستحضار الشياطين الذين هجروا عصرنا! تُظهر هذه الأماكن، منظورةً ظاهرياً، كل أبهة الثقافة، وتشبه بأجهزتها الفخمة ترسانة غصّت بالمدفعية وأسلحة الحرب الأخرى: نحن نشاهد مثل هذه الاستعدادت والنشاط الدؤوب كأن السماء نفسها ستُقتحم وتُستَخرَج الحقيقة من أعمق بئر، ومع ذلك في الحرب غالباً ما تكون أكبر أجزاء الجهاز هي الأسوأ انتشاراً. بالمثل، تتجنب الثقافة الحقيقة هذه الأماكن أثناء توجيه حملاتها، وتشعر غريزياً بأنها ليس لديها أي شيء تأمله منها والكثير لتخاف منه فيها. لأن الشكل الوحيد من الثقافة الذي تريد العين الملتهبة والعقل الكليل للطبقة العاملة المتعلمة أن تشغل نفسها به هو بالتحديد تلك الثقافة المتزمتة التي أعلن شتراوس عن إنجيلها.

إذا تأملنا للحظة في الأسس الرئيسية لهذا التجانس الذي يربط بين الطبقة العاملة المتعلمة والثقافة المتزمة، فسوف نكتشف أيضاً المسار الذي يقودنا إلى موضوعنا الرئيسي الأخير: اعتبار شترواس كاتباً مُعترفاً به كلاسيكياً.

ترتدي هذه الثقافة، في المقام الأول، تعبيراً عن الرضا عن النفس ولن يتغير شيء جوهري في الوضع الحالي للتعليم الألماني، وقبل كلّ شيء إنها مقتنعة بجديّة بتفوق جميع المؤسسات التعليمية الألمانية، ولا سيما المدارس الثانوية والجامعات، ولا تكف أبداً عن التوصية بها كنماذج

للأجانب، ولا تشك للحظة واحدة أنها جعلت الشعب الألماني أكثر أمة متعلمة وحكمة في العالم.

الثقافة المتزمتة تؤمن بنفسها، وبالتالي بالوسائل والأساليب المتاحة لها. لكنها، في المقام الثاني، تضع التحكيم النهائي فيما يتعلق بكل مسائل الذوق والثقافة في يدي الباحث وتعتبر نفسها خلاصة دائمة النمو للآراء المكتسبة عن الفن والأدب والفلسفة. وهي مهتمة بتقييد الباحث في التعبير عن آرائه، وتُعدّها بعد ذلك للشعب الألماني، مخلوطةً أو مخففةً أو ممنهجة كجرعة طبية. كلّ ما يمكن أن يتطور خارج هذه الدائرة يُستَمَع إليه بشك وبلا اهتمام، أو لا يُستَمَع إليه على الإطلاق، حتى يُسمَع صوتٌ منفرد في آخر المطاف، بغض النظر عمّن يكون ما دام يحمل بصمة راسخة للأنواع العلمية، من داخل تلك القاعات المقدسة، حيث من المفترض أن تقيم العصمة التقليدية في مسائل الذوق: ومن ذلك الحين، أصبح الرأي العام يمتلك رأياً إضافياً واحداً، ويكرر هذا الصوت المنفرد بصدًى بمئات الأضعاف. مع ذلك، في الواقع، إن هذه العصمة الجمالية المفترضة مشكوك فيها للغاية، وهي مشكوك فيها بالفعل لدرجة أن المرء قد يفترض أن الباحث في الواقع يفتقر إلى الذوق والأفكار والحكم الجمالي حتى يثبت العكس. وعدد قليل فقط سوف يكون قادراً على القيام بذلك، لأنه بعد التهافت والمضايقة في السباق اليومي الذي أصبح عليه عالم العلوم اليوم، كم سيكون منهم قادراً على الحفاظ على تلك النظرة الشجاعة والراسخة التي تميز بطل الثقافة حتى لو كان يمتلكها مرة ـ تلك النظرة التي تدين هذا السباق اليومي نفسه كمصدر للبربرية؟ لهذا السبب، وعلاوة على ذلك، يجب أن يعيش هؤلاء القلائل في حالة معارضة: ما الذي يمكنهم تحقيقه

ضد الاعتقاد الموحد لآلاف لا حصر لها، التي لها الواحد والكل صنيعة الرأي العام قِدِّيسها الراعي، والتي تدعم وتؤيد بعضها البعض الآخر في هذا الاعتقاد؟ ما الفائدة من أن يعلن فردٌ نفسه ضد شتراوس عندما يقرر كثيرون لصالحه وقد تعلمت الجماهير التي يقودونها التوق إلى جرعات مكررة من جرعة نوم الأستاذ المتزمت؟

إذا افترضنا ضمناً دون ضجة إضافية أن الكتاب الشتراوسي الاعترافي قد حقق انتصاراً بالرأي العام ورُحب به باعتباره منتصراً، فقد يلفت مؤلفه انتباهنا إلى حقيقة أن الأحكام المتنوعة على كتابه في المطبوعات العامة ليست في أيّ حال من الأحوال بالإجماع، وغير مناسبة بالتأكيد بشكل موحد، وأنه هو نفسه اضطر إلى الاحتجاج في تذييلٍ ضد لهجة عدائية بشكل مفرط في بعض الأحيان وبطريقة وقحة ومتحدية من بعض محاربي الصحف أولئك. إذ إنه سيحتجّ قائلاً: كيف يمكن أن يكون هناك رأي عام واحد حول كتابي، عندما يعتبرني كلّ صحفي ألعوبة مشروعة، خارجاً عن القانون تُساء معاملته حسب الرغبة! يُحَلّ هذا التناقض بسهولة بمجرد التمييز بين جانبين من الكتاب الشتراوسي، اللاهوتي والأدبي: إنه فقط في الجانب الأخير الذي اعتدى فيه الكتاب على الثقافة الألمانية. من خلال تلوينه اللاهوتي يقف خارج ثقافتنا الألمانية ويوقظ الكراهية للأحزاب اللاهوتية المختلفة، في الواقع لكل فرد ألماني بقدر ما يكون طائفياً لاهوتياً بطبيعته ويخترع لاهوته الخاص الغريب حتى يكون قادراً على معارضة الآخرين برمتهم. لكن أصغِ فقط إلى كلّ هذه الطوائف اللاهوتية بمجرد أن يُتَحَدَّث عن شتراوس *ككاتب*: تتلاشى التناقضات اللاهوتية في الحال، ونسمع في أنقى انسجام كما لو أنه من فمِ مجموعة واحدة:

ومع ذلك فهو *كاتب كلاسيكي*! الجميع الآن، حتى الأكثر أرثوذكسية بشكل متجهم، يتزلف لوجه شتراوس ككاتب، على الرغم من أن ذلك قد لا يكون بأكثر من كلمة واحدة إشادةً بديالكتيكه الشبيه بلسينغ تقريباً أو بحرية وجمال وصلاحية آرائه الجمالية. ككتاب، على ما يبدو، فإن النتاج الشتراوسي يتوافق مع مثال الكتاب. إن خصومه اللاهوتيين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتحدثون بصوت عالٍ، فهم في هذه الحالة مجرد جزء صغير من الجمهور العظيم: وحتى فيما يتعلق بهم، فإن شتراوس على صواب عندما يقول: مقارنةً مع الآلاف من قرّائي، فإن اثنين من عشرات من الذين يذمونني هم الأقلية المتلاشية، وسيكون من الصعب عليهم البرهنة على أنهم مفسرون مخلصون للأوائل. إذا تحدث، في مثل هذه الحالة، أولئك الذين يختلفون، بينما أولئك الذين وافقوا قد أقنعوا أنفسهم بموافقة صامتة، فإن ذلك يكمن في طبيعة القضية. بصرف النظر عن الفضيحة التي قد يثيرها شتراوس هنا وهناك بين المذهبيين[1] اللاهوتيين، يسود بالنسبة إلى شتراوس *الكاتب* إجماع على هذا النحو حتى بين خصومه المتعصبين الذين يكون صوته بالنسبة إليهم مثل صوت الوحش من الهاوية. والمعاملة التي تلقاها شتراوس على أيدي عمال اليوم الأدبيين من الأحزاب اللاهوتية لا تبرهن لذلك أيّ شيء ضد افتراضنا بأن الثقافة المتزمة في هذا الكتاب قد احتفلت بالانتصار.

يجب الاعتراف بأن المتزمت المثقف هو بدرجة متوسطة أقل صراحة من شتراوس، أو هو على الأقل أكثر تحفظاً عندما يتحدث علناً: لكن الصراحة عند الآخر هي لذلك الأكثر تهذيباً له. في منزله وبين أمثاله يطريها

(1) أو يمكن أن تترجم «الاعترافيون».

بصوت عالٍ، وهو يرفض في الكتابة فقط أن يعترف كم من كل ذلك الذي يقوله شتراوس هو حَسَب قلبه. إن متزمتنا المثقف، كما نعلم مسبقاً، جبان إلى حد ما، حتى عندما يتأثر بقوة: وهذه هي الحقيقة بالتحديد، أعني أن شترواس أقل جبناً بدرجة تجعله قائداً، بينما من ناحية أخرى توجد حدود محددة للغاية لشجاعته. إذا كان عليه أن يتجاوز هذه الحدود، كما يفعل شوبنهاور على سبيل المثال مع كل جملة تقريباً، فإنه عاد لا يقود المتزمتين كزعيم لهم، لكنه سيُتَخَلَّى عنه بشكل عاجل كما هو الآن متبوعٌ. إذا فكر أي شخص أن يسمي هذا الاعتدال والوسطية في الشجاعة، التي إن لم تكن حكمة فهي بأي حال من الأحوال احتراز، فضيلةً أرسطية فسيكون في خطأ: لأن هذا النوع من الشجاعة هو الوسيط ليس بين خطأين، بل بين خطأ وفضيلة ـ وفي هذا الوسيط بين الفضيلة والخطأ تكمن كل صفات المتزمت.

(9)

«لكن مع ذلك، فهو كاتب كلاسيكي!». سنرى الآن.

قد يكون من الطبيعي الاستمرار في الحديث عن شترواس صاحب الأسلوب والفنان في اللغة، لكن دعونا أولاً وقبل كل شيء نفكر فيما إذا كان كاتباً قادراً على بناء منزله، ما إذا كان يفهم حقاً بُنية الكتاب. هذا سيحدد فيما إذا كان حقيقياً وعميقَ التفكير وعملياً وصانعاً مجرِّباً للكتب. وإذا كان علينا الإجابة بالسلبية، يمكن أن يأوي صيته دائماً إلى ادعائه بأنه «كاتبُ نثرٍ كلاسيكي». لن تكون القدرة الأخيرة دون الأولى كافية، بالتأكيد، لرفعه إلى رتبة مؤلف كلاسيكي، ولكن في أحسن الأحوال، إلى مستوى المرتجلين الكلاسيكيين أو الموهوبين في الأسلوب الذين يكشفون، بكل مهارتهم في التعبير، في الانتصاب الفعلي للبناء، عن اليد غير البارعة والعين الجاهلة لعامل أخرق. لذلك ينبغي أن نسأل ما إذا كان شتراوس يمتلك القوة الفنية لبناءٍ كامل *بتكرار العبارة السابقة*.[1]

كقاعدة عامة، تكفي المُسوَّدَة المكتوبة الأولى لتوضيح ما إذا كان المؤلف قد تصوّر عمله ككل ووجد سرعة الأداء العامة والنسب الصحيحة مناسبة لما تصوّره. وإذا كان قد أنجزَت أكثر المهام الحيوية وأُنشِئ المبنى نفسه، بالحجم والتوازن المناسبين، فما يزال هناك الكثير مما ينبغي القيام

(1) في الأصل Tutom ponere.

به: كم عدد الأخطاء الطفيفة التي يجب تصحيحها، وكم عدد الثقوب التي توقفت، وقسم مؤقت أو أرضية رديئة هنا وهناك يجب استبدالها، والتراب والأنقاض في كل مكان، وأينما نظرت يمكنك رؤية علامات العمل التي تتواصل. ما يزال المنزل ككل غير صالح للسكن وغير مريح: كل الجدران عارية والرياح تصفرُ من خلال النوافذ المفتوحة. فيما إذا كان شتراوس قد أنجز العمل الكبير والمرهق الذي نحتاج إليه الآن، فلن يُهمنا لفترة طويلة عندما نسأل إن كان قد أنشأ المبنى نفسه بنِسَبٍ معقولة وتصوره بشكل كامل. نقيض هذا، أعني أن تؤلف كتاباً من شذرات وأجزاء، فهو أمر معروف جداً ليكون أسلوب الباحثين. إنهم يثقون في أن هذه الشذرات والقطع سوف تنسجم بنفسها، وبالتالي تشوش التماسك المنطقي بالفني. على أي حال، فإن العلاقة بين الأسئلة الأربعة الرئيسية التي تحدد أقسام كتاب شتراوس ليست منطقية: «أما زلنا مسيحيين؟ أما يزال لدينا دين مسيحي؟ كيف نفهم العالم؟ كيف ننظم حياتنا؟»، والعلاقة بينها ليست منطقية لأن السؤال الثالث لا علاقة له بالثاني، والرابع لا علاقة له بالسؤال الثالث، والثلاثة كلها لا علاقة لها بالسؤال الأول. فالعالم الطبيعي، مثلاً، الذي يطرح السؤال الثالث، يعرض نقاء إحساسه من أجل الحقيقة لأنه يمر بالتحديد على السؤال الثاني بصمتٍ. يبدو أن شترواس نفسه قد استوعب موضوعات القسم الرابع ـ زواج، مجتمع، عقوبة الإعدام ـ سيكون تشويشها وتعتيمها فقط عن طريق تقديم نظريات دارونية من القسم الثالث، لأنه في الحقيقة لا يعير أي اعتبار إضافي لهذه النظريات. لكن السؤال «أما زلنا مسيحيين؟» يؤذي في آنٍ واحد حرية التفكير الفسلفي ويمنحها تلويناً لاهوتياً غير سار، بالإضافة إلى أنه قد نسي تماماً، أن الجزء الأكبر

من البشرية ما يزال، حتى اليوم، بوذياً وليس مسيحياً. لماذا يجب علينا دون لغط التفكير في عبارة «الإيمان القديم» للمسيحية وحدها! إذا كان شترواس بهذه الطريقة يكشف عن أنه لم يتوقف أبداً عن أن يكون لاهوتياً مسيحياً، وبالتالي لم يتعلم أبداً أن يصبح فيلسوفاً، فإنه يفاجئنا أكثر من خلال عدم قدرته على التمييز بين الإيمان والمعرفة، ومن خلال الاستمرار بتسمية ما يُدعى «إيمانه الجديد» والعلوم الحديثة بنفس الوقت. أم ينبغي لنا أن نعتبر الإيمان الجديد مجرد تكيّف ساخر للاستخدام اللغوي؟ يبدو الأمر كذلك تقريباً عندما نرى أنه يسمح هنا وهناك ببراءة للإيمان الجديد والعلوم الحديثة بتفويض بعضها بعضاً، على سبيل المثال في الصفحة 11، عندما يسأل من أي جانب من ذلك الإيمان القديم أو العلم الحديث «يمكن العثور هناك على المزيد من الغموض وأوجه القصور التي لا مفر منها في الشؤون البشرية». يهدف، وفقاً لمقدمته، علاوة على ذلك، إلى أن يقدم الدليل الذي تعتمد عليه الفلسفة الحديثة: كل هذا البرهان الذي يستعيره من العلم وهنا أيضاً يتبنى موقف رجل العلم كليّاً، وليس موقف المؤمن.

الدين الجديد في الأساس، إذن، ليس إيماناً جديداً، ولكنه على وجه التحديد متناسب مع العلم الحديث، وبالتالي فهو ليس ديناً على الإطلاق. إذا كان شتراوس يشدد على أن لديه ديناً، فإن أسبابه تقع خارج نطاق العلم الحديث. جزء صغير من كتاب شتراوس فقط، لا يزيد على بضع صفحات مبعثرة، يعالج ذلك الذي أمكن أن يكون لشترواس الحق في تسميته إيماناً: أي ذلك الشعور بالكون الذي يطالب له بنفس التقوى كما يشعر مؤمنٌ من الوسمة القديمة تجاه ربّه. ليست الروح العلمية بيّنةً في تلك الصفحات،

بشكل مؤكد على الأقل: لكن يمكننا أن نتمنى المزيد من القوة وطبيعة الإيمان، لأن ما هو مذهل للغاية يصنع الإجراءات التي يتعين على مؤلفنا تبنيها من أجل أن يقنع نفسه بأنه ما يزال يملك إيماناً وديناً على الإطلاق: كما رأينا، عليه أن يلجأ إلى الوخز والضرب بالهراوة. إن هذا الإيمان المحفَّز يزحف متقدّماً ببطء: ونحن نتجمد برؤيته.

يَعِد شتراوس في مقدمته بأن يختبر فيما إذا كان هذا الإيمان الجديد قادراً على عمل، للمؤمن الجديد، ما فعله الإيمان القديم للمؤمن من الوسمة القديمة، لكنه في النهاية هو نفسه سيحسب أنه قد وعد كثيراً جداً. لأنه عندما يتعامل مع الموضوع، فإنه يفعل ذلك بطريقة ارتجالية، بل وبطريقة محرجة تقريباً، في صفحتين (ص. 366 وما يليها)، يلجأ حتى إلى الحيلة اليائسة: «مَن ليس بوسعه أن يساعد نفسه هنا هو أبعد من المساعدة وغير ناضج بعد لوجهة نظرنا» (ص.366). تصوّر بأيّ ثقل من الاعتقاد آمن رواقيُّ العصر القديم في الكون وبعقلانية الكون، وقارنها حتى بادعاء الأصالة التي يصنعها شترواس لإيمانه! لكن، وكما قلنا، سواء كانت جديدة أو قديمة، أصلية أو مقلدة، ستكون مسألة لا مبالاة إن أظهرت فقط الطبيعة والصحة والقوة. يتخلى شترواس عن هذا الإيمان الطارئ المُصَفَّى كلما كانت متطلبات المعرفة تقيّده بالقيام بذلك، ولكي يقدم تصوره العلمي المكتسب حديثاً إلى «نَحنُ» بضمير أكثر هدوءاً. يتوافق الحياء الذي يتحدث به عن إيمانه مع جَهْوَرِيته العالية كلما استشهد بأعظم محسن لمعظم البشرية المعاصرة، دارون: هنا يطالب هو بالإيمان، ليس فقط بمسيح جديد، بل بنفسه كرسول جديد، أيضاً. فمثلاً، عندما يتعامل مع أكثر الموضوعات تعقيداً في العلوم الطبيعية، فإنه يعلن بفخر مخضرم

حقيقي: «يجب إخباري بأنني أتحدث بأمور لا أفهمها. جيد، لكن سيأتي آخرون ممن يفهمونكم ويفهمونني أيضاً». من هذا يبدو الأمر تقريباً كما لو أن «نحن» المحتفى بها ينبغي أن تكون ملزِمة بالإيمان، ليس فحسب في الكون، بل بشتراوس، العالم الطبيعي، أيضاً. في تلك الحالة، كل ما سنطلبه هو أن لا يتوجب على الإيمان الأخير أن يشترط لغرض تحقيقه مثل هذه الإجراءات القاسية والمؤلمة كما فعل الإيمان السابق. أم أيمكن أن يكون «ردّ الفعل الديني»، في هذه الحالة، الذي يمثل علامة «الإيمان الجديد»، منتجاً في المؤمن عن طريق الوخز والضرب بالهراوة، ليس من المؤمن ذاته، بل من مادة الإيمان؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف لنا أن نربح من تديّن هذه الـ«نحن»!

وخلافاً لذلك، يُخشى تقريباً أن يكون الناس المعاصرون قادرين على الانسجام دون أن ينزعجوا بإسرافٍ بمكونات اعتقاد شترواس الديني تماماً، كما فعلوا حتى الآن دون مبدأ عقلانية الكون. لا ناقة للعلم الطبيعي الحديث ودراسة التاريخ ولا جمل البتة مع الإيمان الشتراوسي في الكون، وأن المتزمت الحديث لا يحتاج إليه أيضاً هو أمر يعرضه وصفُ حياته الذي يقدمه شتراوس نفسه في فصل «كيف ننظم حياتنا؟»، ولهذا فهو على حق في الشك فيما إذا كانت «العربة» التي «ينبغي على قرّائه الغالين أن يفوضوا أنفسهم إليها تلبي كل المتطلبات». وبالتأكيد، إنها لا تلبي طلبهم: لأن الإنسان المعاصر يسافر بسرعة أكبر لو أنه لم يجلس في هذه العربة الشتراوسية ـ أو بدقة أكثر: إنه كان يسافر بسرعة أكبر لفترة طويلة قبل وجود هذه العربة الشتراوسية. لذلك إذا كان هذا صحيحاً أن «الأقلية المشهورة التي لا يمكن تجاهلها» والتي يتحدث شترواس باسمها

حقاً «تضع الانسجام في منزلة عالية»، فيجب أن يكونوا غير راضين عن شتراوس باني العربة، كما هي حالنا نحن مع شتراوس المنطقي.

لكن دعونا ننسَ المنطقي: فربما يكون الكتاب مصوغاً من الناحية الفنية في الواقع بصورة جيدة، ويتوافق مع القوانين الجمالية حتى وإن لم يكن يملك خطة منطقية مدروسة. وإننا الآن فقط، بعد تحديد أنه لم يلد نفسه كعالم علمي، وعقل منظم، وباحث منهجي، نصل إلى مسألة ما إذا كان شترواس كاتباً جيداً. ربما تصورها على أنها مهمته، ليس كثيراً جداً لإخافة الناس وإبعادهم عن «الإيمان القديم» بقدر ما هو لجذبهم إلى فلسفة الحياة الجديدة من خلال تصويرها بألوان مبهجة وحيوية. إذا كان يفكر بالباحثين والمتعلمين كأوّل قرائه، فلا بد أنه قد أدرك من خلال تجربته الخاصة أنه، بينما يمكنهم إنهاكه بقصف مدفعي ثقيل من الأدلة العلمية، لا يمكن حملهم على الاستسلام بهذه الطريقة أبداً، على الرغم من أنهم يقعون فريسة بسهولة أكبر لفنون الإغراءات المغطاة بخفة. «مغطًى بخفة» وهذا «عن قصد»، هو مع ذلك ما يسمي شترواس ذاته كتابه به. مدّاحوه العلنيون يجدونه أيضاً ويصفونه بأنه «مغطًى بخفة»، كما يفعل هذا المادح، على سبيل المثال، بالمفردات التالية: «يتحرك الخطاب إلى الأمام بإيقاع مفرح ويتعامل مع فن العرض بنفس مازحة عندما ينخرط بشكل نقدي ضد كل ما هو قديم، لأنه لا يفعل أقل من ذلك عندما يستعد ويقدم بشكل مغرٍ لكل الأذواق القنوعة وذات الخبرة الأشياءَ الجديدة التي يجلبها. إن ترتيب مثل هذه المواد المتعددة والمختلفة، حيث ينبغي التطرق إلى كل شيء، لكن لا شيء توبع بإسهاب ـ أقول إنه مدروسٌ جيداً. التحولات من موضوع إلى آخر هي مهارة بشكل خاص، وحتى أكثر إثارة للإعجاب،

وربما هي البراعة التي تُنَحَّى بها الأشياء غير المريحة أو تُدفَن في صمت».
إن حواس مثل هؤلاء المدّاحين، كما هو واضح هنا، لا تتنبه كثيراً إلى ما يستطيع المؤلف فعله مثلما إلى ما يريد أن يفعله. ومع ذلك، ما يريد عمله شترواس عُرِّض للخيانة بوضوح شديد في توصيته المجدبة المؤكدة وليس البريئة كلياً، بظرافته الڤولتيرية في الخدمة التي كان يمكن أن يتعلم فيها تلك الفنون «المكسوة بخفة» التي يتحدث عنها مدّاحوه ـ أعني على افتراض أن هذه الفضيلة يمكن تعليمها وحتى المتحذلق يمكن أن يصبح راقصاً.

من لا يلجأ إلى التحفظات عندما يقرأ، على سبيل المثال، كلمات شتراوس عن ڤولتير (ص. 219): «كفيلسوف فإن ڤولتير ليس أصيلاً، هذه حقيقة، لكنه على العموم متقنٌ للأبحاث الإنگليزية: مع ذلك يثبت أنه أستاذ مادته التي ينيرها ببراعة لا تضاهى من جميع الجوانب، وبالتالي دون أن يكون منهجياً بشكل صارم، يلبي مطالب الإتقان». جميع السمات السلبية ذات صلة بشتراوس: لا أحد سيصرّ على أن شتراوس كفيلسوف هو أصيل أو منهجي، والسؤال هو ما إذا كنا سنقر أيضاً بأنه «أستاذ مادته» أو أن نعترف له بحيازة «براعة لا تضاهى». الاعتراف بأن العمل «يرتدي كسوة خفيفة عن عمد» يتيح لنا تخمين أن البراعة التي لا تضاهى كانت بأي حال مقصودة.

ليس لبناء معبد أو مسكن، بل لإقامة بيت صيفي مَحُوط بالجنان ـ كان ذلك هو حلم مهندسنا العِمَاري. في الواقع، يبدو تقريباً أن حتى هذا الشعور الغامض للكون كان يقصد به أساساً وسيلةً للتأثير الجمالي، مثل منظر لعنصر غير عقلاني، البحر، على سبيل المثال، من داخل شرفة أنيقة

وعقلانية. إن السير في القسم الأول، أي خلال سراديب الموتى اللاهوتية بغموضها وزخارفها الملتوية والباروكية ـ كان مرة أخرى مجرد وسيلة جمالية لتأكيد الاختلاف على النقاء، وسطوع وعقلانية القسم المعنون «ما تصورنا عن العالم؟»: فبعد المشي في كآبة ولحظة تعاريج غير عقلانية بعيدة مباشرةً، ندخل قاعة مع كوّة مشبّكة، تستقبلنا بوقار مبهج، وهناك رسوم بيانية سماوية وأشكال رياضية على الجدران ومملوءة بأجهزة علمية وخزائنَ مصطفة بهياكل عظمية وقرود محشوة وعينات تشريحية. لكننا لا نسترد دعابتنا اللطيفة كلياً حتى نعبر هذه القاعة وندخل في الترف الكامل لشاغلي منزلنا الصيفي، نستدل عليهم مع نسائهم وأطفالهم منشغلين بصحفهم ويتحدثون بشكل شائع عن السياسة، نصغي لفترة من الوقت وهم يناقشون الزواج والاقتراع العام وعقوبة الإعدام والإضرابات العمالية، ويبدو لنا أن من المستحيل أن تسبيحة[1] الرأي العام يمكن أن تقال بسرعة أكبر.

أخيراً سنكون مقتنعين أيضاً بالذوق الكلاسيكي لأولئك الذين يسكنون هنا: زيارة قصيرة إلى المكتبة وغرف الموسيقى تكشف، كما هو متوقع، عن أن أفضل الكتب يوجد على الرفوف وأكثر القطع الموسيقية شهرة على منصات الموسيقى. حتى إنهم يعزفون لنا شيئاً ما، وإذا كان من المفترض أن تكون موسيقى هايدن، فلن يتحمل هايدن، على الأقل، إذا بدا الأمر كأنها موسيقى ريبل المخصصة للبيت. في هذه الأثناء، أُتيحت لسيد المنزل الفرصة ليقول إنه في اتفاق كامل مع لسينغ، وكذلك مع غوته، على الرغم من استبعاد الجزء الثاني من *فاوست*. وأخيراً، يثني صاحب المنزل على

(1) إشارة تهكمية إلى الصلوات الكاثوليكية.

نفسه، ويعبر عن الرأي القائل بأن أولئك الذين يختلف معهم هم بلا دعم وما زالوا غير ناضجين لوجهة نظره، ولذلك يقدم لنا عربته، مع التحفظ المهذب بأنه لا يستطيع ضمانها بأنها تستجيب لكل متطلباتنا. علاوة على ذلك، الحصى الموجود على طريق عربته، نُثر حديثاً ومن المحتمل أننا نصاب به كثيراً. بعد ذلك ودّعنا إله الحديقة الإبيقورية بمهارة لا تضاهى قد اعترف بها وأثنى عليها في ڤولتير.

من يستطيع الآن أن يشك في هذه البراعة التي لا تضاهى؟ نحن ندرك أن أستاذ مادته: البستاني الذي يكتسي بخفة غيرُ مقنّع، وما زلنا نسمع صوت المؤلف الكلاسيكي: «ككاتب أرفض أن أكون متزمتاً، أنا أرفض! أريد أن أكون ڤولتير، ڤولتير الألماني! وأفضَل من الجميع لسينغ الفرنسي أيضاً»!

لقد خُنّا سرّاً: أستاذنا لا يعرف دائماً مَن يُفضل أن يكون، ڤولتير أم لسينغ، لكنه يريد بأي حال أن يكون متزمتاً، إذا كان ذلك ممكناً، يودّ أن يكون كلاهما، لسينغ وڤولتير ـ قد يُحَقَّق ذلك ما كان مكتوباً: «لم تكن لديه شخصية على الإطلاق: كلما أراد شخصية كان عليه دائماً أن يدّعي واحدة».

(10)

إذا كنّا فهمنا شتراوس الاعترافي بشكل صائب، فهو نفسه متزمت حقيقي ذو روح جافة ضيقة وبمقتضياتٍ رصينة وعلمية: ومع ذلك، لن يكون أي شخص أكثر غضباً بأن يطلَق عليه اسم المتزمت من ديفيد شتراوس الكاتب. سيؤيد إذا ما دعاه أحد عنيداً، متهوراً، حقوداً، أهوجَ، لكنه سيكون أكثر سعادة من الكل في أن يقارَن بلسينغ أو ڤولتير، ما داما بالتأكيد لم يكونا متزمتين. في بحثه للحصول على هذه السعادة غالباً ما يكون متردداً ما إذا كان عليه تقليد اندفاع لسينغ الجدلي الجريء أو إن لم يكن من الأفضل ربما أن يلائم نفسه كشيخ مشبع بالروح الحرة ومثل الساتير Satyr في أسلوب ڤولتير. كلما جلس للكتابة، شكّل ملامحه دائماً كما لو كان على وشك رسم صورته: أحياناً يجعل وجهه يشبه وجه لسينغ، وأحياناً وجه ڤولتير. عندما نقرأ مدحه للأسلوب الڤولتيري (ص. 217)، يبدو أنه يوجه اللوم بصراحة إلى الحاضر لأنه لم يعرف منذ فترة طويلة ما يمتلكه ڤولتير المعاصر: «مزايا أسلوبه»، يقول شتراوس، «إنها نفسها في كل مكان: طبيعية بسيطة، ووضوح شفاف، ومرونة حيوية، وفتنة سارة. الدفء والتأكيد ليسا مفقودين حيثما كانت الحاجة إليهما. نبعت كراهية الغطرسة والتكلف من طبيعة ڤولتير العميقة، تماما كما هو الحال، عندما خفضت العاطفة والاندفاع، من ناحية أخرى، نبرةَ خطابه، ولا يكمن الخطأ في صاحب الأسلوب بل في الكائن الإنساني فيه». لنحكم من هذا

أن شتراوس يعي جيداً أهمية *بساطة الأسلوب*: لقد كانت دائماً علامة العبقرية التي تملك امتياز التعبير عن نفسها ببساطة وطبيعية وسذاجة. ولهذا لا يخون أي طموح مشترك عندما يختار المؤلف أسلوباً بسيطاً: لأنه، على الرغم من أن العديد سيرى ما يود مثل هذا المؤلف أن يؤخذ به، فإن هناك العديد ممن يجبرون على أخذ ذلك. لكن إذا كان مؤلفٌ يحوز عبقرية، فإنه يخونها بأكثر من البساطة ودقة التعبير: فسلطته الجمّة تلعب بموادّه حتى عندما يكون الأمر صعباً وخطيراً. الخطوات الجبانة والجامدة لن تحصل على أحدٍ بطرقٍ غير مألوفة مُلِئت بألف هاوية: مع ذلك، فإن العبقري يسير بشكل فطن على طول هذه المسارات بخطوات جريئة أو أنيقة ويتجاهل بحذرٍ قياس خطواته.

أن القضايا التي أقرها شتراوس في العرض قضايا خطيرة ومخيفة، وأنها عولِجَت على هذا النحو من قِبل حكيم كل عصر ـ هو أمر معروف لشتراوس نفسه، ومع ذلك، فهو يسمي كتابه «*مغطًّى بخفة*». من كل جديّة التأمل المفزع والكئيب الذي يُغمر المرء فيه اضطراراً عندما يواجه أسئلة عن قيمة الوجود وواجبات الإنسان، لا يوجد هناك أدنى شك حين يتجاوزنا أستاذنا الموهوب مهتاجاً، «مغطًّى بصورة خفيفة وبقصدٍ كذلك» ـ مغطًّى، في الواقع، بصورة خفيفة أكثر مما هو روسو، الذي أخبرنا أنه عَرّى نصفه الأسفل وغطى نصفه الأعلى، بينما يقول إن غوته غطى نصفه الأسفل وعرّى نصفه الأعلى. يبدو أن العباقرة الساذجين تماماً لا يغطون أنفسهم على الإطلاق، لذا ربما يكون تعبير «مغطًّى بصورة خفيفة» مجرد تلطيف لغوي لعَرَاء الحقيقة الإلهية، القلّة الذين رأوها يؤكدون أنها كانت عارية: وربما في عيون أولئك الذين لم يروها، لكنهم يقبلون بكلمة

أولئك القلّة الذين لديهم العُرِي أو اللباس الخفيف في حد ذاته دليلاً على الحقيقة، حتى ولو كان مجرد دليل ظرفي. مجرد الشك بأنها هذه هي القضية يعمل في صالح طموح المؤلف: يرى شخص ما شيئاً عارياً ـ و«أفترض أنها ستكون الحقيقة!» ـ يقول لنفسه، ويفترض تعبيراً أكثر جديّة من التعبير الذي يستخدمه عادة. لكنّ مُؤَلِّفاً قد حقق بالفعل الكثير لو أنه أرغم قارئه على أن يعتبره أكثر جديّة مما فعله مع مؤلف آخر ارتدى ثياباً أكثر كثافة. هذا هو السبيل إلى أن يصبح «كلاسيكياً» في يوم من الأيام: وشترواس نفسه يخبرنا بأنه قد «مُنح شرفاً غير منشود باعتباره نوعاً من كاتب نثر كلاسيكي»، وبذلك يكون قد بلغ هدف رحلته. طاف شترواس العبقري الشوارع كـ«كلاسيكي»، متنكِّراً كإلهة ترتدي ثوباً خفيفاً، ويكون شترواس المتزمت، لتوظيف تعبير أصلي لهذا العبقري، «ملزَماً الخروجَ من الموضة» أو أن «يُطرد كيلا يعود أبداً».

للأسف يعود المتزمت مراراً وتكراراً، على الرغم من كل هذه الأحكام والطرد إلى الخارج! للأسف، الوجه المُحوَّل في شكل ڤولتير أو لسينغ يرتد من وقت إلى آخر، عاجلاً، إلى شكله القديم والصادق والأصلي! للأسف، غالباً ما يسقط قناع العبقري، ولا يرتدي الأستاذ أبداً تعبيراً مستاءً أكثر، ولم تكن إيماءاته أكثر صلابة أبداً مما كانت عليه، عندما حاول فحسب تقليد خطوة العبقري وجعل عينيه تومضان بنيران العبقري. إن مناخنا بارد، وبالتحديد لأنه يطوف مرتدياً ملابسَ خفيفةً لدرجة أنه يُعرض لخطر الإصابة بالزكام في أكثر الأحيان وأكثر خطورة من غيره، بحيث يلاحظ الآخرون عندئذ أن كلّ هذا قد يكون مؤلماً حقاً، ولكن إذا كان ينبغي مرةً علاجُه، فيتوجب عليه الخضوع للتشخيص العام التالي:

ذات مرة كان هناك شترواس، وهو باحث شجاع، وصارم، ويكتسي ثياباً متقشّفة، وجدناه متجانساً مثل أي شخص في ألمانيا يخدم الحقيقة بجديّة وبقوة ويعرف كيفية البقاء ضمن حدوده الخاصة، هو الذي اشتهر بواسطة الرأي العام كديفيد شترواس أصبح شخصاً آخر. قد يكون خطأ اللاهوتيين أنه أصبح هذا الشخص الآخر. نجد أن اللعبة التي يلعبها الآن بقناع العبقري مُنَفّرة أو مثيرة للسخرية إلى حد كافٍ، كما وجدنا جديّته السابقة مثيرة للجديّة والتعاطف. عندما يخبرنا الآن: «أنه سيكون عمل جحود ضد عبقريتي إذا لم أفرح بذلك، فإلى جانب موهبة النقد المدمر القاسي، فقد منحت أيضاً متعة الإبداع الفني البريئة»، وقد يفاجئه أيضاً أن يعرف أنه على الرغم من هذه الشهادة الذاتية فهناك أشخاص يحافظون على النقيض: أولاً، أنه لم يمتلك أبداً موهبة الإبداع الفني، ومن ثَم فإن المتعة التي يسميها «بريئة» هي كل شيء باستثناء البراءة، نظراً إلى أنها تقوّض تدريجياً طبيعةً نقدية وعلميةً بليغة وراسخة بشكل أساسي ـ بعبارة أخرى، العبقرية التي امتلكها شتراوس فعلاً ـ ودمرها في النهاية. في فَوْرةٍ من الصراحة غير المقيدة، يعترف شتراوس بأنه «كان لديه دائماً ميرك Merck خاص به في داخله، الذي هتف له: عاد ليس عليك أن تنتج مثل هذه النفايات، يمكن للآخرين القيام بذلك!». هذا كان صوت العبقرية الشتراوسية الحقيقية: وحتى يخبره أيضاً عن مدى قيمة أو كم هي قليلة شهادته الأخيرة المكسوّة بشكل خفيف والبريئة عن المتزمت الحديث. يمكن للآخرين القيام بذلك أيضاً! ويمكن الكثيرون فعل ذلك بشكل أفضل! وأولئك الذين يستطيعون فعل ذلك بشكل أفضل هم أكثر موهبة وأرواح أثرى من شترواس، عندما فعلوا ذلك، فإنهم لم ينتجوا أي شيء سوى ـ القمامة.

أحسب أنني جعلت الأمر واضحاً كيف أعتبر شتراوس كاتباً: كممثل يلعب دور العبقري والكلاسيكي. قال ليختنبرغ ذات مرة: «الأسلوب البسيط ينبغي أولاً وقبل كل شيء أن يُوصَى به، لأنه لا يوجد إنسان نزيه يخضع لما يقوله لإسهاب مصطنع، لكن ذلك لا يعني بالتأكيد أن الطريقة البسيطة هي دليل على صحة التأليف. كنت أتمنى أن يكون شترواس الكاتب أكثر صدقاً، وبالتالي سيكتب بشكل أفضل ويكون أقل شهرة. أو ـ إذا توجب أن يكون ممثلاً على الإطلاق ـ كنت أتمنى أنه كان ممثلاً جيداً وكان يعرف بشكل أفضل كيفية تقليد أسلوب العبقري والكلاسيكي. لأنه يبقى أن نقول إن شترواس هو في الواقع ممثل سيئ ولا قيمة له تماماً ككاتب بارع الأسلوب.

(11)

الاستنكار القائل إن المرء ليس كاتباً جيداً قد خُفِّفَ، بالتأكيد، انطلاقاً من حقيقة أن من الصعب للغاية في ألمانيا حتى أن تصبح كاتباً متوسطاً ومقبولاً، ومن غير المحتمل بشكل مدهش تماماً أن يصبح المرء كاتباً جيداً. الأساس الطبيعي غير موجود، وهو التقييم الفني، والعلاج، وتهذيب الكلام الشفوي. وكما تشير التعابير «محادثة صالون»، «موعظة»، «خطيب برلماني»، فإن الكلام العام في ألمانيا لم يصل بعد إلى أسلوب وطني أو حتى إلى الرغبة في أسلوب: لم تنبثق اللغة بَعدُ من مرحلة التجريب الساذج، بحيث لا يوجد معيار موحد يمكن من خلاله توجيه الكاتب، وبالتالي يكون لديه حق معين في التعامل مع اللغة على مسؤوليته الخاصة: وهذا يجب أن يؤدي إلى التداعي غير المحدود للغة الألمانية التي تشكل «لغة الحاضر» والتي وُصفت بقوة أكثر من قبل شوبنهاور. «إذا استمر هذا»، قال ذات مرة، «ففي عام 1900 ستعود الكلاسيكيات الألمانية غير مفهومة، لأن اللغة الوحيدة المفهومة ستكون الرطانة الرثة لـ«حاضرنا» النبيل ـ السمة الأساسية له العجز». بالفعل، يعطي الحكّام اللغويون والنحويون الألمان الذين يكتبون في أكثر المجلات حداثةً انطباعاً على أن كلاسيكياتنا عادت غير صالحة لنا كنماذجَ أسلوبيةٍ لأنها تستخدم عدداً كبيراً من الكلمات والتعابير والأشكال النحوية التي فقدناها: ولهذا السبب قد يبدو من المناسب تجميع روائع مشاهيرنا الأدبيين الحاليين بهدف تقليد

مفرداتهم وعباراتهم، كما فعل ساندر في الواقع في قاموسه الموجز حول اللغة الشائنة. هنا يظهر الوحش الأسلوبي البغيض، غوتزكو Gutzkow ككلاسيكي. ويبدو أنه يتعين علينا عموماً أن نعوّد أنفسنا مجموعةً جديدةً ومثيرة للدهشة تماماً من الكلاسيكيين، من بينهم الأول أو أحد الأوائل هو ديفيد شترواس، الذي لا يمكننا وصفه بأيّ طريقة أخرى غير الطريقة التي وصفناه بها مسبقاً: كأسلوبي تافه.

من الخصائص المميزة إلى أقصى حد للثقافة المزيفة للمتزمت المثقف حالياً، أنه يجب عليه أن يستأثر حتى بمفهوم الكاتب الكلاسيكي والنموذجي ـ الذي يبدي قوته فقط في تفادي أسلوب ثقافي حقيقي وبليغ فنياً، ويتوصل من خلال صموده في الممانعة إلى التعبير الذي يشبه تقريباً وَحْدَة الأسلوب. كيف يكون ممكناً، مع ذلك، أن يكتشف بعضُ المؤلفين الفرديين، بافتراض أن التجريب غير المحدود بلغةٍ سُمح لكلّ فرد أن ينغمر فيه، نغمةَ صوتٍ مقبولة عالمياً؟ ما الذي هو هنا حقاً مقبول عالمياً؟ وفوق كل شيء كيفية سلبية: غياب أي شيء هجومي ـ *لكن أي شيء مثمر حقاً* هو هجومي. لأن ما يقرؤه القسم الأعظم من ألمانيا اليوم يشمل، بلا شك، الصحف والمجلات التي ترافقهم: اللغة المستخدمة هنا رَشْحٌ لا ينقطع من نفس التعابير ونفس الكلمات تطبع نفسها في أذنه، وما دام أنه عادةً يقرأ هذا الأدب، عندما يكون عقله المتعب قادراً قليلاً، على أية حال، على المقاومة، فإن سماعه للغة سوف يشعره تدريجياً بارتياح في هذه اللغة الألمانية اليومية ويتألم عندما يلاحظ غيابها. المنتجون لهذه الصحف، مع ذلك، كما هو متوقع من كل طريقة حياتهم، هم الأكثر تعوّداً لهذه اللغة الصحفية: لقد فقدوا بأضيق معنًى للكلمة كل ذوق، وأكثر ما

يمكن أن يتذوقه لسانهم مع أي نوع من اللذة هو الفاسد والمتقلب تماماً. وهذا ما يفسر *كل انسجام*[1] يحيي، على الرغم من الوهن العام والمرض، كل لحن مخترع بطريقة جديدة في اللغة: مثل هذه التصحيفات الوقحة هي عمل انتقامي من اللغة بسبب الملل الذي لا يمكن تصديقه والذي تُلحقه بعمالها اليوميين. أتذكر أنني قرأت مناشدة «إلى الشعب الألماني» من قبل بيرتولد أَوِرباخ، كانت فيها كل عبارة تحريفاً وتزييفاً غير ألماني للغة، والتي كانت تشبه كَكُلٍّ فسيفساء من الكلمات عديمة الروح التصقت ببعضها بقواعد لغوية عالمية، ناهيك باللغة الألمانية القذرة بشكل مخزٍ والتي احتفل بها إدوارد ديفرينت بذكرى مندلسون. وبالتالي فإن التلحين في اللغة ـ وهذا هو الشيء الرائع ـ يشعر به أهلنا، ليس كشيء بغيض، بل كإنعاش محفز في الصحراء القاحلة والخالية من الأشجار للغة الألمانية اليومية. لكنه يجد الإنتاجية الحقيقية بغيضة. المؤلف النموذجي الأكثر حداثة لا يغفر له مجرد بناء جمله المشوّهة والمبتذلة والمسرفة وتعابيره الجديدة السخيفة، فهم يقدرون فيه كفاءة تمنح عمله طعماً لاذعاً: لكن الويل لصاحب الأسلوب ذي الشخصية التي تتجنب هذه التعابير اليومية بجديّة وبإصرار، كما هو يفعل تجاه «وحوش اليوم الذين فقسوا[2] بخربشة الليلة الماضية»، مثلما قال شوبنهاور. عندما تكون البديهيات والأفكار المبتذلة واللغة الضعيفة، التي فقدت قيمتها بسبب كثرة الاستعمال، القاعدة، ويُتَلَقَّى السيئ والفساد كاستثناءات محفزة، فعندئذ ينتهي القوي، والجميل، وغير المألوف إلى الازدراء: لذلك تتكرر في ألمانيا باستمرار

(1) في الأصل بالإيطالية tutti unisono.

(2) أي فقسوا وولدوا من البيضة.

قصة المسافر الذي جاء إلى أرض الحُدْب[1] وقد أهين بشكل مخزٍ من قبل سكانها بسبب بنية جسمه المَعِيبة المفترضة، حتى رحمه أخيراً كاهن وقال للناس: «من الأصح أن تشفقوا على هذا الغريب المسكين وتضحوا إلى الآلهة بامتنان لكونها زيّنتكم بهذه الحدبة المهيبة».

إذا كان ينبغي لأي فرد أن يؤلف قواعدَ اللغة الألمانية اليومية الحالية وأن يتبع القواعد، بصفتها غير مكتوبة وغير معلنة لكنها أمرٌ ملزِم يتحكم بطاولة كتابة كل شخص، فإنه سيواجه بعض المفاهيم الغريبة في الأسلوب والبلاغة، ربما مأخوذة من ذكريات المدرسة والتمارين اللاتينية القسرية، وربما من قراءة الكتّاب الفرنسيين الذين يملك كل فرنسي متعلم كما ينبغي الحق بأن يهزأ بفظاظتهم المدهشة. يبدو أن الألمان، على الرغم من سمعتهم الحسنة بكل ما للكلمة من معنًى، لم يتأملوا بعدُ حول تلك المفاهيم الغريبة التي يعيش ويكتب كل ألماني تقريباً بموجِب قاعدتها.

من ثَم لدينا طلب أن يظهر التشبيه والاستعارة من وقت إلى آخر، وأن الاستعارة ينبغي أن تكون جديدة: لكن بالنسبة إلى عقل الكاتب البائس، فإن الجديد والحديث هو نفس الشيء، والآن يعذب نفسه لاستخلاص استعاراتٍ من السكك الحديدية، والتلغراف، ومحرك البخار، والبورصة، ويشعر بالفخر لحقيقة أن هذه التشبيهات يجب أن تكون جديدة لأنها حديثة. في كتاب شتراوس الاعترافي، نجد تقديراً مسهِباً قد أُسدي إلى الاستعارة الحديثة: إنه يرفدنا بتشبيهاتٍ طويلة على مدى صفحة ونصف مستخلصة من أعمال تحسين الطرق، وهو يقارن ببضع صفحات سابقة العالم بآلة ذات

(1) ذوو الظهور المحدبة.

عجلاتٍ ومكابسَ ومطارقَ و«زيت ملطف». ـ وجبة طعام تبدأ بالشمبانيا (ص. 362). وكانط كمؤسسة للمعالجة بالماء (ص. 325). و«يقارن الدستور السويسري بالإنجليزي، كما تقارَن طاحونة مائية بمحرك بخاري، ورقصة القالس أو تأليفة موسيقية قصيرة بالسمفونية»[1] (ص. 265). «في حال كل استئناف يجب الالتزام بالتداول الصحيح للمحاكم. المحكمة الوسيطة بين الفرد والناس، مع ذلك، هي الأمة» (ص.258). «إذا كنا نرغب في أن نكتشف إن كانت الحياة موجودة في الواقع في كائن حي يبدو لنا ميتاً، فإننا نختبره عادة عن طريق تعاطي منشِّطٍ قوي ومؤلم، وخزة على سبيل المثال» (ص. 141). و«المجال الديني في الروح الإنسانية يشبه مجال الهنود الحمر في أمريكا» (ص. 138). و«لتحديد الحاصل الكلي للسابق في أعداد صحيحة في أسفل الفاتورة» (ص. 90). «النظرية الدارونية تشبه مسار السكك الحديد الذي حُدّد للتو... حيث ترفرف الأعلام بمرح في الريح» (ص. 176). إنه بهذه الطريقة، وهي الطريقة الأكثر حداثة، قد امتثل شتراوس لمطلب المتزمتين بأنه يتوجب بين وقت وآخر ظهور مجاز جديد.

هناك أيضاً مطلب إضافي واسع للغاية، وهو أن البيانات التعليمية ينبغي أن تكون مكونة من جمل طويلة تستخدم التجريد، بينما ينبغي من الأفضل أن تكون تلك التي هدفت إلى الإقناع في جمل قصيرة ذات أشكال متباينة من التعبير تثبُ واحدةً بعد الأخرى. يقدم شتراوس في الصفحة 132 جملة نموذجية من النوع التربوي والعملي: متضخمة إلى نسب حقيقية

---

(1) Fugue، تأليفية موسيقية ذات موضوع قصير (أو) أكثر تشترك فيها أصوات أو آلات مختلفة وتعاد فيها النغمة مع بعض التغييرات. انظر حسين سعيد الكرمي، المغني الأكبر، ص. 444.

شلايرماخية، تزحف إلى الأمام بسرعة سلحفاة: «أنه في المراحل المبكرة من الدين، عوضاً عن «من أين» واحدة يظهر منها العديد، وبدلاً من إله واحد يظهر عددٌ كبير من الآلهة ـ هو أمر يعود، وفقاً لاشتقاق الدين هذا، إلى حقيقة أن القوى الطبيعية المختلفة أو ظروف الحياة التي تثير في الإنسان الشعور بالاعتماد المطلق ما تزال في البداية تؤثر فيه بكل تنوّعها. وهو لم يصبح بعدُ واعياً بكيفية عدم وجود تمييز بينها فيما يتعلق باعتماده المطلق عليها، وبالتالي لن يمكن أن يكون «منشأ» اعتماده هذا أو الكينونة التي يمكن في آخر المطاف ردّ هذه القوى والظروف إليها إلا واحداً». مثال على الشيء المعاكس، على الجمل القصيرة والنشاط المنفعل الذي أثار بعض القرّاء لدرجةٍ أمكنهم فيها أن يذكروا شتراوس فقط بالتناغم مع لسينغ، يمكن العثور عليه في صفحة 8: «أنا مدرك جداً أن ما أقترحه في الصفحات التالية معروف تماماً أيضاً لبشر آخرين لا حصر لهم، ومعروف من بعضهم على نحو أفضل. لقد تحدث بعضهم مسبقاً. فهل عليّ أن أبقى لذلك صامتاً؟ لا أعتقد ذلك، لأننا نكمل بعضنا البعض. إذا كان شخصٌ آخر يعرف أشياءَ كثيرة أفضل مني، فربما أعرف أنا أشياء قليلة أفضل منه: وأنا أملك وجهات نظر عن أمور كثيرة مختلفة عن وجهات نظر الآخرين. لذا أعلنها، دعني أعرض ألواني معها، فربما يمكن رؤية إن كانت حقيقية أم لا». بالتأكيد، إن أسلوب شترواس يحتفظ عادةً بوسيلة بين هذه المسيرة السريعة المريحة والحرة والزحف الجنائزي للمثال الأول: بل بين اثنتين من الرذائل لا تَسْكُن فضيلةٌ دائماً، وفي كثير من الأحيان فإن ما يسكن هناك هو الضعف، والعرج، والعجز. شعرت بخيبة أمل كبيرة جداً، في الواقع، عندما نظرتُ في كتاب شتراوس في البحث عن سمات وتعبيرات أكثر دقة

وأذكى: ما دام أنني لم أجد شيئاً يستحق الثناء في المعترِف، فقد أنشأت في الحقيقة عنواناً أدرج تحته مثل هذه المقاطع، حتى أتمكن، على الأقل، من قول شيء في مديح شتراوس الكاتب. بحثت وبحثت لكنني لم أتمكن من إدراج أي شيء. من الناحية الأخرى، أصبحت القائمة الأخرى التي تحمل عنوان «الأخطاء في الإعراب، التشبيهات المشوشة، الاختصارات الغامضة، التفاهة والحذلقة»، كاملة للغاية بحيث يمكنني المغامرة لإعادة ـ هنا ـ إنتاج منتخباتٍ متواضعة فقط من الأمثلة التي جمتعها. ربما ستكشف بالضبط عن ما الذي يثير في الألماني الحديث اعتقاده بأن شتراوس هو أسلوبي كبير: لأننا هنا نجد تُحَفاً لافتة للنظر من التعابير التي تقدم كَكُلٍّ، في التراب القاحل وصحراء الكتاب هذه، إن لم يكن سعادةً فإنها تحفز بأي حال من الأحوال مفاجآت بشكل مؤلم: عند مواجهة مثل هذه المقاطع، نلاحظ استخدام استعارةٍ شتراوسية بأننا على الأقل لم نمت بعدُ بالطريقة التي نتفاعل بها مع هذه الوخزات. تكشف بقية الكتاب عن افتقار تام إلى أي شيء مهما كان مسيئاً، أي منتِجاً، مثل ذلك الذي يمكن وصفه الآن باعتباره قيمة إيجابية عند كاتب النثر الكلاسيكي. رزانة مفرطة وخلوّ من التشويق والمتعة، اعتدال حقيقي ساغب يوقظ في أوساط الجماهير المتعلمة في هذه الأيام شعوراً غير طبيعي بأن هذه على وجه التحديد هي علامات العافية المزدهرة، بحيث تُطَبَّق هنا كلمات مؤلِّف *Dialogus de Oratibus*: «*حتى صحتهم التي يستعرضونها، لا يحصلون عليها من خلال القوة، بل من خلال الصوم*».[1] ويكرهون، بإجماع غريزي، كلّ

(1) ترجمة لنص Tacitus باللاتينية: *Illam ipsam quam iactant sanitatem non firmi-tate sed ieiunio consequuntur*.

تحمل[1] لأنه يشهد على صحة مختلفة تماماً عن صحتهم، ويسعون إلى إلقاء الشك على التحمّل وعلى الإيجاز، والطاقة النارية للحركة وعلى اللعب الحساس والسخي للعضلات. لقد اتفقوا معاً على قلب طبيعة وأسماء الأشياء والحديث من الآن فصاعداً عن الصحة، حيثما نرى ضعفاً ومرضاً وتوتراً، نواجه صحةً حقيقية. هذه هي الطريقة التي سوف يُحسب بها شتراوس «كلاسيكياً».

لو كان فقط هذا الاعتدال على الأقل اعتدالاً منطقياً بصرامة، لكن البساطة والصرامة في التفكير هي ما يفتقر إليها بالضبط هؤلاء الضعفاء، وتصبح اللغة نفسها بأيديهم التباساً منطقياً. حاول فحسب أن تترجم هذا الأسلوب الشترواسي إلى اللاتينية ـ الذي يمكن القيام به حتى مع كانط، ويكون ممتعاً وسهلاً مع شوبنهاور. السبب في أن لغة شترواس الألمانية غير قابلة تماماً لها، هو ليس أن لغته الألمانية هي من المحتمل أكثر ألمانيةً من لغة كانط أو شوبنهاور، بل أن ألمانيته مشوّشة وغير منطقية بينما لغتهم متبصّرة ببهاء وبساطة. مَن يعرف الجهد الذي أنفقه القدماء على تعلم الكلام والكتابة، وكيف أن المعاصرين لا يبذلون مثل هذا الجهد، يشعر ـ كما قال شوبنهاور ذات مرة ـ بإحساسٍ حقيقي بالارتياح، عندما يلجأ بعد أن أُجبر على الخوض في كتاب ألماني مثل هذا، إلى تلك اللغات القديمة الأخرى والتي مع ذلك تظل جديدة أبداً. يقول: «لأنه مع تلك (اللغات)، يكون أمامي لغة ذات قواعد ثابتة وقواعد إملاء ونحوٍ متماسكة ومرصودة بإخلاص، ويمكنني تكريس نفسي كلياً للفكر المعبَّر عنه فيها، بينما مع اللغة الألمانية فأنا مذهول باستمرار بوقاحة الكاتب الذي يسعى

(1) في الأصل باللاتينية firmitas، ويمكن أن تُترجم أيضاً إلى «صبر».

إلى التغلب على غرابة أطواره ونزواته النحوية والإملائية الخاصة به: قطعة من الحماقة الصلفة أجدها مُنفّرة. ومن المفجع حقاً أن ترى لغة جميلة وقديمة تمتلك أدباً كلاسيكياً يُساء التعامل معها من قبل جهلة وحمير».

هكذا ينادي غضب شوبنهاور المقدس إليك، بحيث لا يمكنك القول إنك لم تُحذَّر. لكن هذا الذي يرفض بصورة مطلقة الاكتراث بهذا التحذير، ويصرّ على الاستمرار في اعتقاده بأن شترواس كلاسيكي، ينبغي، كنصيحة أخيرة، أن يُوصى بتقليده. إذا قمت بتجريب هذا، ستكون في خطر: عليك أن تدفع ثمن ذلك، في أسلوبك، وفي نهاية الأمر، في رأسك، قد يتحقق فيك أيضاً القول المأثور من الحكمة الهندية: «أنْ تقضم قرنَ بقرةٍ هو أمر بلا فائدة ويقصر الحياة: إنك تطحن أسنانك ومع ذلك لن تحصل على تغذية».

(12)

في الختام، سنضع الآن أمام كاتبنا للنثر الكلاسيكي المجموعة الموعودة من أمثلة أسلوبه، ربما سيمنحها شوبنهاور العنوان: «وثائق جديدة من الرطانة الرّثة اليوم»، لأنه إذا كانت هناك أي تعزية له، فقد يشعر ديفيد شتراوس بالراحة لإخباره أن العالم اليوم يكتب كما يريد، وأن بعض الناس يكتبون أسوأ منه، وأنه في بلد العميان يكون الإنسان الأعور مَلِكاً. في الواقع، نحن نتنازل له بجزء كبير عندما نعترف له بعين واحدة، ومع ذلك، فنحن نفعل ذلك لأن شتراوس على الأقل لا يكتب مثل أكثر الشائنين من مفسدي الألمانية، الهيغليين وذريتهم المشوهة. إنه يريد على الأقل العودة من هذا المستنقع، وقد نجح جزئياً، على الرغم من أنه لغاية الآن بعيد جداً عن أن يكون على أرض صلبة؛ وما يزال من اللافت للنظر أنه في شبابه تأتأ هيغليةً: شيء ما أصبح مفككاً فيه في ذلك الوقت، وانبسطت بعض عضلاته، وصارت أذنه بليدة، مثل أذن الصبي الذي نشأ وسط الضرب على الطبول، بحيث إنه أصبح بعد ذلك أصمَّ لقوانين الصوت الدقيقة والعظيمة التي يعيش في ظل أحكامها كل كاتب دُرِّبَ على نحو صارم لاتّباع نماذجَ جيدة. وبذلك فقد كأسلوبيٍّ أفضل ممتلكاته، وإذا كان يتوجب عليه أن لا ينزلق ثانية في وحل الهيغلية، فقد حُكم عليه بأن يعيش حياته على الرمال المتحركة الخطرة والقاحلة لأسلوب الصحيفة. ومع ذلك، فقد نجح في أن يصبح مشهوراً لبضع ساعات في عصرنا، وربما

ستكون هناك بضع ساعات أكثر عندما نتذكر أنه كان ذات مرة مشهوراً، ولكن بعد ذلك سيأتي الليل وسيُنسى: والآن في هذه اللحظة، بينما ندرج خطاياه الأسلوبية في الكتاب الأسود، يبدأ الشفق بالانقضاض على شهرته. لأن مَن أذنب بحق اللغة الألمانية، يكون قد دَنَّسَ لغز كلّ ما هو ألماني: خلال كل الإرباك والتغييرات في الأمم والعادات، فإنها حافظت على نفسها ومعها الروح الألمانية، كما بسحر ميتافيزيقي. إنها وَحدها تضمن مستقبل هذه الروح، شريطة ألاّ تُهلك نفسها على أيدي الحاضر. لكن، *آه أيتها الآلهة الصالحة!*[1] ابتعدي، أيتها الحيوانات الغليظة الجِلد، ابتعدي![2] هذه هي اللغة الألمانية التي تحدث بها أناسٌ، والتي غنّى بها الشعراء العظماء وكتب فيها المفكرون الكبار. ارفع يديك! ـ

[*يقدم نيتشه الآن نحو 70 مثالاً عن نوع اللغة التي كُتِبَت بها* **المعتقدات الجديدة والقديمة**[3] *ويخضعها لتعليق قاسٍ جداً. وتشمل الأخطاء المكشوفة أخطاء نحوية من أنواع مختلفة، وإساءات ضد استخدام جيد، استعارات مضطربة، خواء معنًى وصوراً مجازية متعذرة. والنقد يثبت تهمة أن شترواس فقد كل إحساس باللغة الألمانية، وأي إدراك واضح لمعنى الكلمات التي يستخدمها. إن محاولة ترجمة شتراوس الخاطئة إلى اللغة الإنكليزية المكافئة سيكون أمراً ممتعاً، لكن من الناحية الأخرى فهي ممارسة لا معنى لها في الإبداع. وبالنسبة إلى القارئ الذي لا يستطيع أن يقرأ تلك الجمل في تعليقات نيتشه الألمانية الأصلية، يتوجب أن*

---

(1) في الأصل *Di Meliora*.

(2) في الأصل Pachyderms، وهي بمعنى الحيوانات غليظة الجلد ومنها الفيلة.

(3) ترجمة لـ Der alte und neue Glaube.

يفقد معظم صحتها وقوتها. لذا يلوح أن المسار المعقول هو حذف هذا المقطع].[1]

بهذا أكون قد أكملت اعترافي بالإيمان. إنه اعتراف فرد، وما الذي يستطيع مثل هذا الفرد أن يفعله ضد كل العالم، حتى لو كان صوته مسموعاً في كل مكان! سيكون حكمه فقط ـ ولأتركك مع آخر ريشة حقيقية من كساء الريش الشتراوسي ـ مالكاً «*القدر نفسه من الحقيقة الذاتية كما هي حاله دون أيّ قوة موضوعية للبرهان*» : ـ أليس الأمر كذلك يا أصدقائي الأعزاء؟ لذا استمروا لتكونوا في فرح مناسب! دعوها في الوقت الحالي على الأقل تسترح مع «بقدر... دون»[2] الخاصة بكم. في الوقت الحاضر؟ يعني ما دام هذا الشيء الذي هو في حينه دائماً، والذي يُحتَاج إليه حاضراً أكثر من أي وقت مضى، ما يزال يُعتَبَرُ في غير أوانه ـ أعني به: قول الحقيقة.

قحطان جاسم

تمت الترجمة في تاريخ 30.9.2020

---

(1) هذه فقرة أضافها مُترجِم النص الألماني إلى اللغة الإنكليزية المعتمدة، بدورها، في هذه الترجمة العربية، وهو هولنغديل. ولمن أراد الاطلاع على المقطع المحذوف من نصّ نيتشه، وهو مقطع طويل يمتد لصفحات، مترجماً إلى الإنكليزية، فعليه بنسخة جامعة ستانفورد لمؤلفات نيتشه الكاملة، المجلّد الثاني، بعنوان-*Unfashionable Ob servations*، والذي ترجمه رتشرد غراي Richard T. Gray. [المحرر]

(2) ترجمة لـ«of as much... as without»، وهي إشارة مختصرة إلى الجملة التي سبقتها بخط مائل وبين علامتي اقتباس، أي التي بدأت بـ«القدر نفسه من الحقيقة الذاتية...».

كتاب "ديفيد شتراوس -المعترف والكاتب" هو أحد النصوص الأربعة التي صدرت للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه بين الأعوام (1873-1876). وكان نيتشه قد خطط في الأصل، كما ورد في أوراقه، لإصدار ثلاثة عشر نصًّا تتناول موضوعات مختلفة، إلّا أنه لم يتمكن من إنجاز سوى أربعة منها.

وكما تناولت النصوص الأخرى شخصيات كالفيلسوف شوبنهاور ومؤلف الموسيقى الأوبرالية فاغنر، فإن نيتشه تناول في هذا الكتاب آراء وتصورات ديفيد شتراوس (1808-1874).

بدأ نيتشه العمل على هذا الكتاب في عام 1873، وقد وجه نقدًا صارمًا ولاذعًا لأفكار وتصورات ديفيد شتراوس المسيحية، الذي صعد نجمه في تلك الفترة، وخاصة بين الهيغليين اليساريين، باعتباره مفكرًا لاهوتيًّا يطرح أفكارًا إصلاحية للدين المسيحي، على الرغم من رفضهم لاستنتاجاته، وخاصة في كتابه "حياة المسيح". علمًا أن شتراوس كان متأثرًا بأفكار هيغل واللاهوتي شلايرماخر الذي تتلمذ على يديه.

وقد تركز نقد نيتشه لأفكار شتراوس اللاهوتية وعقائده الدينية التبشيرية الجديدة على نقد الثقافة الألمانية وتاريخها والمؤسسات التعليمية عمومًا، إلى جانب التزمت الفكري الذي كان يسم تصورات شتراوس الإيمانية.

ما يميز هذا الكتاب هو سلاسة لغته وعمقها وتضمنها العديد من الأفكار، وخاصة الكيفية التي ينظَر بها إلى التاريخ وقضية الإصلاح الديني. ثم إنه يعلم أن قاعدة النقد الفكري تقوم على التفكيك والتحليل وتقديم الحجج التي تتعلق بالنص وليس بشخص مؤلفها.

ISBN 978-9-9226430-2-1

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين